جميل مظهر

أميرة بابل

ترجمة عن فرنسية

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٧

الفصل الاول

التنافس الملكي لنيل يد فورموزانتا

كان ملك بابل ، بيلوس العجوز ، يظن أنه أعظم إنسان على وجه البسيطة . ذلك ما قاله رجال حاشيته ، وما أثبته علماء التاريخ . ونحن نعلم أنّ قصره وحديقته مقاماًن على بعد فراسخ قليلة من بابل ، تمتد بين الفرات ودجلة اللذين يرويان تلك الشواطىء الساحرة . أما واجهة القصر فتبلغ ثلاثة آلاف قدم بيد أنها تكاد تناطح السحاب وكذلك أفريزه فقد صُوِّر بأعمدة من الرخام يبلغ ارتفاعها خمسين قدماً ، تقوم من فوقها تماثيل فخمة لكل الملوك وعظماء رجال الدولة ويتألف هذا الافريز من صفين من الآجر تغشاهما طبقة كثيفة من الرصاص تخترق الأرض بعمق اثني عشر قدماً . وغرست الأرض فكانت حرجة عظيمة من أشجار الزيتون والبرتقال والليمون والنخيل والكاكاو والقرفة ومجموعة من شجر المنثور ، حجبت أشعة الشمس أن تنفذ الى ماشيها وبمراتها .

تتدفق مياه الفرات وتنساب مرتفعات من الخلجان ترفع إليها المياه بمضخات ، عديدة في الحديقة مجارٍ طولها ستة آلاف قدم فضلاً عن مئة ألف نافورة قلما يدرك ارتفاعها . ومن ثم تعود كل تلك المياه الى الفرات . ولم تكن حدائق سميراميس التي بهرت آسيا من بعد ذلك بأجيال ، غير تقليد واهن لتلك الأعاجيب القديمة . ذلك بأنه في زمن سميراميس كان كل شيء قد بدأ يفسد بين الرجال والنساء .

أمّا أعجب ما كان في بابل وطغى على كل ما سواه ، فإبنة وحيدة للملك تدعى فورموزانتا كانت صورها وتماثيلها المثال الذي نحت براكسيتيلس على غراره في العصور التالية تمثالي أفروديت وزهيرة مدرتشي .

يا للسماء ! أي بعد بين الأصل والتقليد .

وكان الملك بيلوس يفخر بابنته أكثر مما يفخر بملكه . كانت تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً وأصبح من الضروري أن يحظى بها زوج يستحقها . ولكن أين يوجد ؟

هناك نبوءة قديمة بأن فورمازانتا لن تكون إلا من نصيب من يستطيع أن يطوي قوس النمروذ. وأمّا النمروذ هذا، فكان قناصاً ذا قوة وعنفوان يبركة الآلهة وقد خلف قوساً

من الآبنوس صنع في « دويت » طوله خمسة عشر قدماً بابلونيًّا . كان أشد صلابة من حديد القوقاز، ولم يستطع كائن بشري أن يثني هذا القوس العجيب من بعده .

وقيل أيضاً بأن الساعد الذي يستطيع أن يثني هـذا القوس قد يقتل أسداً ضارياً عنيفاً ينطلق عليـه في ملاعب بابل . ولم يكن هذا كل شيء ، فإنّ ثاني القوس وقاهر الأسد ، لا بدّ متغلب على كل منافسيه ، بله أنه يكون حكيماً ، مبصراً ، متوقد الذهن ، فاضلاً ، يثير دهشة كبيرة في أنحاء الكون .

لم يتقدم غير ثلاثة ملوك كان لديهم من الشجاعة ما يكفي لأن يدعي كل منهم أنه كفء لفورموزانتا : فرعون مصر ، وشاه الهند ، وخان الاسقوثيين الأكبر . فحدد الملك بيلوس يوم المنازلة ومكانهـا في أحد أطراف الحديقة حيث الاتساع العظيم الذي تكتنفه مياه دجلة والفرات عند تلاقيهما . وأعدّ حوّل الدرج مسرح من الآبنوس مستدير الشكل يتسع لخمسة آلاف مقاعد ، ووضع عرش الملك في واجهة المسرح بحيث يظهر ومعـه فورموزانتا يحف بهما جميع رجال البلاط . وذات اليمين وذات الشمال ، بين العرش والمسرح ، أقيمت عروش أخرى ومقاعد للملوك الثلاثة ، ولكل الملوك الآخرين الذين رغبوا في شهود تلك الحفلة الفخمة .

كان فرعون مصر أول من وصل ممتطياً عجل أبيس وفي يده قيثارة إيزيس ، ومن ورائه ألفا كاهن مدثّرون بلباس من الكتان الأبيض أنصع من الجليد ، ثم ألفا خصي فألفا ساحر ، فألفا محارب .

وسرعان ما وصل ملك الهند في عربة يجرها إثنى عشر فيلاً ، ومن ورائه حاشية أكبر عدداً وأبهى منظراً من حاشية فرعون مصر .

وكان ملك الاسقوثيين آخر من وصل منهم ، وقد امتطى نمراً أليفاً مهيباً يطاول بقامته أي فرس فارسي أصيل . ولم يكن له من شيء الأبهة إلاّ فرسانه المختارين ، وقد طمست هيبته وجلالته على مظهر منافسيه ، وظهر ذراعاه البيضاوان العاريتان في قوّة وصلابة ، وكأنهما قادرتين على أن تحنيا قوس النمروذ .

تقدّم ثلاثتهم وانحنوا في جلال أمام الملك وإبنته فرموزانتا .

أهدى ملك مصر الأميرة تمساحين من أرهق تماسيح النيـل ، وبفروسين ، وحمارين وحشيين وفأرين مصريين وجثتين محنطتين وكتاب هرميس العظيم ، معلناً بأن تلك الأشياء أندر ما في العالم .

أما ملك الهند فقدّم إليها مئة فيـل يحمل كل منهم قاعة من الذهب مطلوّة بالذهب

الخالص ، ووضع عند قدميها كتاب البيدا منسوخاً بيد إ كساكا نفسه .

وكان ملك اسقوثيا أميّاً ، فاكتفى بأن يهديها مئة من جياد الحرب الأصيلة ، أضفى على كل منها كسوة جميلة من فراء الثعالب السود .

ولقد بدت الأميرة أمام محبيها مغضية من نظرها ، وامتلأت مسترخية في مقعدها بدلال ، اعتبر في ذلك الزمن منتهى التواضع والأدب .

أمر الملك بيلوس الملوك أن يجلسوا في العروش التي أعدّت لهم، ثم قال لو كان لي ثلاث بنات لجعلت ستة من الأتعس سعداء في هذا اليوم . ثم أمر المتنافسين أن يضربوا قرعة فيما بينهم ، أيهم يكون أول من يحاول أن يلوي قوس النمرود . فوضعوا أسماءهم المنقوشة في خوذة من الذهب ، فظهر اسم ملك مصر أولاً ، ثم من بعده إسم ملك الهند ، فلما رأى ملك اسقوثيا القوس ومنافسيه ، لم يبد شيئاً من الأسف أنه ثالثهم .

وفي خلال ذلك قدم عشرون ألفاً من الخدم ومثلهم من الوصيفات الجميلات . وخالطوا بغير نظام صفوف المشاهدين يوزعون الحلوى والمرطبات . وقد ثبت في روع جميع الناس بأن الآلهة لم تنصّب أولئك الملوك اللهمّ إلاّ لإقامة الولائم والحفلات في كل يوم على أن تكون مختلفة المناظر منوعة الأساليب ، وأن الحياة أقصر من أن تنصرف الى فرص آخر ، وأن المنازعات القضائية والدسائس والحروب ومماحكات اللاهوتيين التي تستغرق حياة الانسان ، إنما هي أشياء مقوتة غير معقولة ، وأن الانسان قد خلق للذة والسعادة ، وانه إذا لم يكن قد خلق لهذا ولم يسور على هذه الحقيقة، لما مضى يبحث عن اللذائذ بشهوة غير منقطعة ، وأن جوهر الحياة الانسانية ان ننصرف الى ملذاتنا وأن كل ما عدا ذلك غباء وجهل . أمّا هذه الفضيلة الرقيقة فلم تجادل فيها حقيقة من الحقائق .

وإذ كانوا يعدون الأسباب التي توجه مصير فورموزانتا ، ظهر في طرف الحلقة شاب أجنبي يمتطي خرتيتاً ومعه وصيفه يمتطي خرتيتاً آخر وعلى يده يجثم طائر كبير . وقد داخلت الدهشة قلوب الحراس إذ آنسوا في هذا الزائر شخصاً تنبعث منه ريح القدسية . فقد كان له وجه أدونيس على جسم هرقل . فحاجباه السوداوان وجدائله الجميلة كان ينبعث منها جمال لا عهد لبابل به ، حتى لقد أثار اعجاب الحضور ، فهبّ المسرح بأكمله لمشاهدة ذلك الزائر الأجنبي ونظر اليه نساء البلاط بأجمعهنّ نظرات كلها دهشة واعجاب، حتى ان فورموزانتا التي ظلت حتى ذلك الوقت مغضية من نظرها ، رفعت عينيها وعلت وجهها حمرة الخجل ، وبهت الملوك الثلاثة وعلا وجوههم الاصفرار . ولما قرن الحضور هذا الأجنبي بفورموزانتا صاحوا قائلين . « ما من شاب آخر في العالم قد بلغ جماله مبلغ جمال الأميرة » .

سأله الحجاب مأخوذين بالعجب عما اذا كان ملكاً ؟ فرد بأنه لم ينل ذلك الشرف وانه من بلد أجنبي حضر مدفوعاً بالفضول ليرى هل هناك ملك هو كفء لفورموزانتا. ثم توجه نحو بيلوس وابنته والملوك الثلاثة ثم الحضور وذلك بكل احترام وتبجيل . واتئد الى الصف الأول من المسرح فاستقر في مقعده يعلوه شيء من حمرة الخجل ، ورقد الطرتيتان عند قدميه وجثم الطائر فوق كتفه وجلس وصيفه الى جواره ومعه حقيبة صغيرة .

بدأت المنافسة وأخرج قوس النمروذ من جرابه الذهبي ، وتقدم مشرف الاحتفالات العام ومن أمامه عشرين يقرعون الدفوف ، ومن خلفه خمسين وصيفاً وسلم القوس لفرعون مصر . فأمر كهنته ان يباركوه ثم جنده على رأس عجل آبيس من غير أن يشك في أنه سيحظى بأول نصر . فنزل الى ساحة الميدان ثم حاول مستجمعاً كل قواه ومضى يتلوى محدثاً حركات كانت سبباً في إثارة الضحك من الجميع ، وشاركتهم في ذلك فورموزانتا . فإنها لم تقو على حجب ابتسامة ارتسمت على ثغرها .

وإذ ذاك تقدم نحوه رئيس حجابه قائلاً « دع جلالتك هذا الشرف للشخص الذي قوامه قوة الأعصاب والعضلات ، فانك سوف تنتصر في كل شيء ما عدا هذا ، فسوف تقهر الأسد حيث أنك تملك بركة إيزيس . إن أميرة بابل سوف تكون لمن هو أحكم المتنازعين . وأنت تحل الطلاسم . انها ستتزوج أفضلهم ، وأنت كذلك . فقد تعلمت على أيدي كهنة مصريين ، وأكرمكم سيصبح زوجها . وقد أهديتها أروع تماسيح وأجمل فأرين من فئران الدلتا . وتملك كذلك عجل أبيس وكتب هرميس ، أندر أشياء في الوجود . فلا أمل لأحد في أن ينازعك فورموزانتا .

فقال ملك مصر « أنت على حق » ثم عاد الى عرشه .

أعطي القوس بعد ذلك الى ملك الهند الذي ظلت يداه مخمشتان من أثر الجهد أربعة عشر يوماً ، ولكنه تعزى عن ذلك بأن ملك إسقوثيا سوف لا يكون أسعد منه حظاً .

ثم أخذ ملك الاسقوثيين القوس بدوره ، وقرن القوة بالمهارة ، فظهر أن القوس بدأ يلتوي بين يديه ، فلواه قليلاً ولكنه عجز أن يحنيه وقد أعجب المشاهدون بطلعته فالوا إليه ووددوا لو أنه ينتصر ولكنهم حزنوا لاخفاقه ، إذ قام في روعهم أن الأميرة الفاتنة سوف لا تتزوج .

نزل الى الميدان ذلك الشاب المجهول وقدم نفسه الى ملك اسقوثيا قائلاً « لا ينبغي أن تندهش جلالتك لعدم تمام نجاحك ، فان هذه الأقواس الابنوسية تصنع في بلادي ولها طريقة خاصة تستعمل بها ، وقد تكون قدرتك على ثنيه قليلاً أعظم من قدرتي لو أني

قوّمته تماماً . ثم أخذ سهماً وثبته في الوتر ، وطوى قوس النمرود ورمى بالسهم خلف الابواب . صفقت ملايين الأيدي للأعجوبة ، ودوت بابل بهتاف الاستحسان ، وأجمع النساء على أنه حظ سعيد أن يجمع شاب بين جمال الصورة وقوة البدن ، ومن ثمت أخرج من جيبه قرصاً صغيراً من العاج وكتب فيه بقلم من الذهب وثبته في القوس وقدمه الى الأميرة بكثير من الكياسة أخذت بلب الحاضرين ، ثم عاد الى مكانه بين وصيفه وطائره . ولقد ذهلت بابل والملوك الثلاثة ، في حين لم يظهر على الشاب الاجنبي أي علامة من علامات الاهتمام لما قد حدث .

زادت دهشة فورموزنتا عند ما قرأت على القرص العاجي المثبت في القوس هذه الأسطر المكتوبة بالكلدانية الفصحى :

« إن قوس النمرود هذا ، هو قوس الحرب ، أما قوس الحب فقوس السعادة ، فأيهما تملكين ؟ بفضلك أصبح هذا الآلـه القاهر سيد الأرض . ان ثلاثة ملوك أقوياء ، بل ثلاثة متنافسين يتقدم كل منهم متطلعاً لارضائك ، ولست أدري أيهم بفضله قلبك ؟ ولكني أعلم أن من تفضلين سيغار منه الكون »

لم تر الأميرة أي شيء من الغضاضة في تلك القصيدة الغزلية ، ولكنها كانت موضع النقد من بعض رجال البلاط القدماء ، والذين قالوا بأنه لو وجد بيلوس وفورموزانتا في الأعصر القديمة لشبه هو بالشمس ورقبته بالبرج ، وشبهت هي بالقمر وصدرها بكيل كامل من القمح . وزادوا الى ذلك بأن الأجنبي فاقد التصور وأنه قد خرج على قواعد الشعر الجيد . ولكن السيدات حكمن بأن القصيدة في منتهى الفراهة ، وعجبن من رجل يجمع بين استخدام القوس بهذا المنفوان وذلك القدر البالغ من الحصافة .

وقالت وصيفة شرف الأميرة : « سيدتي ، أي قدر من الذكاء والفطنة قد بددت في هذا المكان . وما الفائدة التي سوف يجنيها هذا الشاب من ذكائه ومهارته في معالجة قوس النمرود .

أجابت فرموزانتا « ليثير بنفسه الاعجاب » .

صاحت الوصيفة « آه . قصيدة غزلية أخرى ، ثم يصبح محبوباً » .

وبعد أن استشار الملك بيلوس عقلاء مملكته ، أعلن بأن هؤلاء الملوك الثلاثة ولو أنهم أخفقوا في معالجة قوس النمرود ، فإن ابنته برغم ذلك لابدّ من أن تتزوج ، وإنها سوف تكون من نصيب ذاك الذي يقهر الأسد العظيم الذي كان قد أعدّ مخصيصاً لذلك واحتفظ به في حديقته .

رأى ملك مصر الذي بُذل في سبيل تعليمه كل ما اختزن في مصر من الحكمة أنه

من المضحك أن يعرّض ملكاً نفسه لشراسة وحش في سبيل أن يتزوج ، وذلك برغم أنه يعتقد أن نيل فرموزانتا قيمة لا تقدر . على أنه كان يعتقد أن الأسد لو أنشب فيه أنيابه ، فإنه لن يستطيع أن يتزوّج هذه البابلية الحسناء . وبرأيه أخذ ملك الهند وانتهى أمرهما بأن ملك بابل يتخذهما هزواً وأنه أصبح واجباً عليهما أن يستعديا الجند لتأديبه ، لاسيما وأن لديهم من الأتباع من يعتقدون أنه من الشرف الأكبر أن يموتوا في سبيل أسيادهم ، وذلك من غير أن تسقط شعرة واحدة من رأسيهما المقدستين . وبعد ذلك يكون من الهين عليهما أن يخلعا ملك بابل عن عرشه ثم يضربا قرعة : أيهما ينال فورموزانتا الفاتنة .

وبعد أن عقدا ذلك الاتفاق أرسل كل منهما رسولاً الى قومه في طلب ثلاثمئة ألف مقاتل حتى يستنيا نيل فورموزانتا .

ومع هذا ، نزل ملك إسقوثيا بمفرده إلى الميدان ، يحمل سيفه ، ولم يكن في الحقيقة مدفوعاً بحب فورموزانتا وإنما كان حب العظمة والمجد اللذان دفعاه على القدوم الى بابل . وقد كان مصمماً على أن يُظهر أنه إذا كان كل من فرعون مصر وخان الهند هنديي التبصر حتى أنهما لا يتنازلان الأسود ، فإن عنده من الشجاعة ما يحمله على ألا يرفض النزال ، وأنه سوف يصلح ماخدش من شرف دياديم . وقد أبت عليه شجاعته الخارقة أن يقبل استمداد العون من غيره ، فتقدم بمفرده متخذاً بخوذة موشاة بالذهب ، ومظلة بذيول ثلاثة جياد ناصعة البياض كالجليد .

أطلق عليه أسد من أضخم وأشرس الأسود التي تعيش في جبال الانتيلبانية ، ولاح للحضور أن مخالبه المخيفة قادرة على تمزيق الملوك الثلاثة إرباً في لحظة وأن بلعومه يكفي لازدرادهم جملة . اندفع البطلان المغروران في عجلة التهور وسورة الغضب كل منهما في اتجاه الآخر . فأنشب الاسقوثي الشجاع سيفه في فم الأسد المغرور فارتطم حد السيف بإحدى أسنان الأسد القوية السميكة التي لا يخترقها من شيء ، فكسر . وكاد سيد الغاب ، وقد هاجه جرحه وصيره أكثر شراسة وضراوة ، أن يدرس مخالبه في جنبي الملك .

كانت الكارثة التي حلت بالملك الشجاع سبباً دعى الشاب الأجنبي أن ينزل الى ساحة القتال في سرعة البرق الخاطف ويحز رأس الأسد في مهارة فائقة أشبه بالمهارة التي رأيناها في فرساننا ، وهم يحزون رؤوس الدمى السود في المناورات الحربية .

ثم أخرج صندوقاً وقدمه الى ملك إسقوثيا قائلاً : ستجد جلالتك في هذا الصندوق شيئاً من حشيشة التجبل الأصيلة التي تنمو في بلادي وهي تلئم جروحك الملكية في لحظة . ان المصادفة فقط هي التي عاقت انتصارك على الأسد ، فبسالتك وجرأتك ايضاً مما لا تثير الدهش

إستقوى على الملك شعور الاعتراف بالجميل أكثر مما إستقوى عليه شعور الحقد، فعانق منقذه بعطف وحنان، وشكره ثم عاد الى مقعده ليضع الشعر على جرائده .

أمر الاجنبي وصيفه ان يغسل رأس الاسد من نافورة عند أسفل الدرج ، فما زالت آثار الدماء ، أخرج من جيبه آلة حديدية صغيرة وأفرغ مكان الاسنان الاربعين ووضع مكانها أربعين جوهرة متساوية الحجوم . ثم عاد السيد الى مكانه بتواضعه المعروف وأعطى رأس الاسد الى الطائر الجميل وقال: احمل هذه الهدية الصغيرة وضعها عند قدمي زموزانتا .

جنح الطائر في طريقه وهو يحمل ثمرة النصر المرعب في إحدى مخلبيه وقدمه الى الأميرة، ثم أحنى رقبته في تواضع ظاهر وربض بين قدميها . بهرت الجواهر أعين الذين شاهدوها ، فمثلها كان غير معروف حتى في بابل العظيمة ، فالزمرد ، والياقوت الاصفر والازرق ، والاحجار الجرانيتية الياقوتية اللون كانت لا تزال حتى ذلك الوقت أعظم ما يتزين به . ولقد داخل بيلوس ورجال بلاطه دهشة عظيمة ، كما أثار الطائر الذي قدم الهدية في نفوسهم دهشة أعظم . فقد كان في حجم النسر، ولكن لم تكن عيناه كعيني النسر مخيفة جبارة ، بل كانت ناعمة حمراء ، وكان منقاره وردي اللون يشبه بعض الشيء فم فوزموزنتا ، وتماوج في رقبته ألوان قوس قزح، ولكن ببهاء أعظم وروعة أكبر . وقد غطى ريشه لون الذهب متدرجاً في ألف من الظلال المتباينة ، وكأن قدميه كانتا خليط من الفضة والارجوان . وأما ذيول تلك الطيور التي كانت في يوم ما تجر عربة يونوس ، فلم يكن جمالها ليقرن بجمال ذيل ذلك الطائر الفريد الذي يعز نظيره

استأثر الطائر والجواهر بما انبعث في قلوب أهل الحاشية من الاستحسان والدهشة والفضول . جثم الطائر على أحد الاعمدة بين الملك والاميرة ، فربتت الاميرة عليه وأمرت بيدها على ريشه ثم قبلته ، فقابل رعايتها بمزيج من السرور والاحترام الظاهر ، فلما ضمته رد تحيتها ناظراً اليها بعينين تفيضان حباً وحناناً ، فأعطته بسكويتاً وفستقاً فتلقاها بمخلبيه الفضيين وحملها الى منقاره بدلال يعجز عنه الوصف .

وبعد أن اختبر بيلوس الجواهر بانتباه وفطنة، انتهى الى انه ما من أحد قدم لابنته مثل تلك الهدية الفاخرة ، وانه يجب أن تعد هدايا أعظم وأفخر لذلك الشاب الاجنبي، من تلك التي أعدت لثلاثة الملوك الآخرين وقال « ليس من شك في أن هذا الشاب الصغير ابن ملك الصين أو ابن ملك تلك الرقعة من الارض التي سمعت عنها وتسمى أوربا ، أو أفريقية ، تلك التي يقال انها بالقرب من المملكة المصرية » .

وسرعان ما أرسل رئيس خدمه ليتحسس ذلك الاجنبي : أهو امبراطور أم ابن أحد من ذوي الأمبراطوريات السالفة . وكيف لاوحو يملك ذلك الكنز المدهش وقدحضر وحده بخادم وحقيبة !

وبينما رئيس الخدم يتجه نحو الدوج إذا بوصيف آخر يصل ممتطياً خرتيتاً متجهاً نحو الأجنبي ويقول إن والدك « أورمار » قد اقترب من نهاية الحياة ولقد حضرت لانبئك بذلك .

رفع الفتى عينيه إلى السماء فانحدرت منهما دموع فياضة وقال « لنرحل » .

وبعد أن قدم رئيس الخدم التحية لقادر الأمد ومهدي الأربعين جوهرة وصاحب الطائر الجميل ، سأل وصيفه . « من أي مملكة والد هذا البطل الملكي؟ » .

فقال الوصيف « إنّ والده راعي غنم كبير السن محبوب من كل مواطنيه » .

وفي أثناء الحديث قال الفتى لرسول الملك وقد ركب الخرتيت :

« سيدي : تعطف واجعلني أسعد عند قدمي الملك بيلوس وابنته ، إذ يجب أن أضرع إليها عساها تضفي على ذلك الطائر عناية خاصة ، ذلك بأنه كالأميرة نادر الوجود» . ولما انتهى من كلامه اندفع بخرتيته كالبرق الخاطف يتبعه وصيفاه واختفوا عن الأنظار في لحظة .

لم تتمكن فورموزانتا أن تمنعه من بكائها ، وظهر على الطائر تأثر بالغ عندما أدار نظره يوله الى حيث كان يجلس سيده وبدا على نظراته حنوّ بالغ كأنما هو قد صمم على تكريس حياته لخدمة الأميرة، عندما أنها ربت في عطف بيدها الجميلة على منقاره .

على أنّ أعظم ما أثار دهشة الملك بيلوس، علمه بأن هذا الشاب الخارق ابن راع . فلم يصدق ما سمع وأرسل من خلفه رسلاً سرعان ما عادوا ليخبروه بأن الخراتيت الثلاثة التي ركبها أولئك الشبان يتعسر اللحاق بها . ذلك بأن سرعتهم كان يجب أن تصل الى مئة ميل في اليوم الواحد .

أخذ كلٌّ يفكر في تلك الخاطرة العجيبة ، وراحوا يخمنون ويضربون في الظنون . أيمكن لابن راع أن يهدي أربعين جوهرة كبيرة ؟ وكيف تأتى له أن يركب الخرتيت ؟ إنّ ذلك قد ملأهم دهشة وعجباً ، في حين أن فورموزانتا وقد أخذت تدلل طائرها ، غمرها شعور عظيم بالخشية والاعجاب .

الفصل الثاني

كان لفورموزانتا إبنة عم تدعى الديا ، لا تقل عنها جمالاً وفتنة ، فكانت وسيمة الطلعة بهيّة المحيّا ، وقد قالت لها ذات يوم :

« يا إبنة العم ، إني لا آمل أن يكون نصف الإله هذا ابن راعٍ أو سواه ، ولكني أظنه قد أتمّ كل الشروط المفروضة لزواجك . لوى قوس النمروذ ، وقهر الأسد . ثمّ ان له نصيباً كبيراً من الذكاء والفطنة ، فقد ارتجل لك قصيدة غزلية رائعة ، كما أظن أنك لاتنكرين أنه أكثر الرجال كرماً بعد أن أهداك أربعين جوهرة كبيرة ، وله الطائر الذي هو أكثر الأشياء غرابة على وجه الأرض . وأن فضيلته لا يمكن أن تدانيها فضيلة،مذ رحل توّاً حال علمه بمرض أبيه ، بالرغم من أنه كان يجب أن يبقى ليمتع نفسه بصحبتك . وقد تحققت النبوءة في كل تفاصيلها ما عدا الوقت الذي ينتصر فيه على منافسيه . غير أنه فعل أكثر من هذا اذ أنقذ حياة منافسه الوحيد الذي يخشاه . في حين أنه عندما يكون التنافس موجهاً الى الاستملاء على الاثنين الآخرين ، اعتقد أنك لاتشكين في أنه سينتصر عليهما بسهولة » .

فقالت فورموزانتا « إن كل ما تقولين هو حقٌ ، ولكن أمن الممكن أن يكون أعظم الرجال وربما أحبهم جميعاً ابن راعٍ ؟ »

قالت وصيفة الشرف التي شاركتهما الحديث بأن لقب الراعي كثيراً ما يخلع على الملوك فيدعون رعاة،لأنهم يتصلون برعاياهم اتصالاً وثيقاً ، وأنّ تلك الكلمة صدرت بغير شك من الوصيف عن طريق المزاح المقصود . فإن هـذا البطل الشاب لم يتهيأ بكامل عدته عند حضوره الا ليظهر أن حذقه الشخصي وحده أعظم وأفخر من استعراضات الملوك الفخيمة . لم تبد الأميرة بعد ذلك أي رأي،بل عمدت الى الطائر في حنان تقبّله آلاف القبل .

وأعدّت مع ذلك وليمة عظيمة للملوك الثلاثة ولباقي الأمراء الذين حضروا تلك الحفلة، وكانت الأميرة وإبنة عمها تحييان ضيوفهما ، ووزع الملك من الهدايا الفخيمة ما يناسب عظمة بابل . وبينما كانت الموائد تعد للحضور ، جمع بيلوس مجلس استشارته للتباحث في أمر زواج

فرومرزانتنا الجرية . ومضى يعبر للمجلس عن رأيه متخفياً صفة سياسي من كبار السياسيين ، فقال :

« تقدمت بي السنون ، ولست أعرف الآن الطريق الأفضل لاتباعه إزاء ابنتي ، أولمن من العرسان أقدمها ، فمن يستحقها ليس إلاّ راهباً حقيراً ، وملكا مصر والهند بهما جبن ، وأفضل الثلاثة عندي هوملك الاصقوتيين ،إلاّ أنه لم يتم أي شرط من الشروط اللازمة،وسوف نستشير النبوءة مرة ثانية ، وأتباحث معكم في نفس الوقت ، وسننتهي بعظيم السرور الى ما ترشدنا إليه النبوءة . ذلك لأن الملك لا يجب أن يتبع شيئاً غير ما تمليه الآلهة الخالدة » .

وتوجه إلى المعبد فأجابته النبوءة في كلمات قليلة كالعادة « ان ابنتك سوف لا تتزوج إلاّ بعد أن تطوف كرة الأرض » ، فعاد بيلوس وقد تملكته الدهشة وردّد هذه الكلمات على مسمع من مجلس استشارته .

على أن احترام النبوءات العظيم الذي كان متغلغلاً في نفوس الوزراء ، جعلهم يوافقون بالاجماع ، أو على الأقل تظاهروا بالموافقة ، لا لسبب الهمّ إلاّ أنهم أساس الدين وعماده ، وان العقل يجب أن يلغى أمام إرادتهم ، فمن طريقهم سلط الملوك على شعوبهم . وبغير النبوءات لا يبقى من فضيلة أو راحة في الأرض .

وفي النهاية وبعد تأدية أعظم مظاهر الاحترام لهم ، انتهوا الى أن هذه النبوءة سفيهة ولا ينبغي ان تطاع ، فليس هناك من حماقة أشد من أن تهيم الى مكان مجهول،إمرأة صغيرة وعلى الأخص ابنة ملك بابل العظيم ، وان هذه هي الوسيلة المحققة لمنعها من الزواج ، وإلاّ أنشأت لنفسها علاقات خفية مخجلة . وعلى الجملة فإن هذه النبوءة معدومة المعنى .

قال أصغر الوزراء سناً،ويدعى أوناداس ، فقد كان أحسن تفكيراً من الآخرين ، بأن النبوءة بغير شك لا تقصد إلاّ هجرة دينية ، وتطوع ان يكون رائد الأميرة . فوافق المجلس على فكرته ولكنهم رغبوا جميعاً في أن يكونوا رفقاءها . وبعد ذلك سمح الملك على أن ترحل الأميرة في الطريق المؤدي الى بلاد العرب ، ثلاثمئة فرسخ ، حتى تنتهي الى المعبد الذي اشتهر قديسه بتهيئة الفتيات الصغيرات للزواج السعيد ، يرافقها في الرحلة رئيس لجماعة المجلس . وبعد ذلك قاموا لتناول العشاء .

الفصل الثالث

حفل ملكي لتكريم الضيوف الملكيين

وتكلم الطائر بفصاحة مع فورموزانتا

في وسط الحدائق وبين خليجين من خلجانها، أقيم بهو إهليلجي الشكل قطره ثلاثمئة قدم ولون سقفه أزرق لازوردي، رصع بنجوم من الذهب، وصفت بحيث تمثل كل الصور السماوية والسيارات وكل منها في مكانه الصحيح. وكان هذا السقف يدور دورة القبة السماوية بآلات بلغت من الخفاء مبلغ تلك القوة التي تدير القبة السماوية. ويضيء الحديقة وبهو الطعام مئة ألف شمعة في داخل أسطوانات من البلور الفاخر، وأقيم مقصف مدرج فيه عشرين ألف آنية خزفية وصحن ذهبي. وفي مواجهته وعلى درج آخر، جلس عدد كبير من الموسيقاريين، كما أعد دوقان آخران يبذانه زينة وفخامة، أحدهما مليء بفواكه الفصول الأربعة، والآخر حوى مشارب بلورية تتلألأ فيها أنواع الخمر المنتقاة.

أخذ الضيوف أماكنهم حول مناضد قسمت الى حنيات متناسبة رصعت بالأحجار الكريمة فكانت تشبه الثمار أو الزهور. وجلست فورموزانتا الفاتنة بين ملكي مصر والهند، كما جلست ألديا الوديعة إلى جانب ملك اسقوثيا وجلس حوالي ثلاثون أميراً الى جانب كل منهم فتاة من أجمل فتيات الحاشية. واتخذ ملك بابل مكانه في الوسط مواجهاً ابنته وقد ساوره خيالان، حزنه لعدم تمكنه تزويجها، والآخر سروره لأنها ما زالت معه. وقد استأذنت فورموزانتا أن تضع الطائر الى جانبها على المائدة، فسمح لها الملك بذلك.

واستمرت الموسيقى تعزف طول وقت الطعام. فسنحت بذلك لكل أمير فرصة أن يحدث صاحبته. وقد جمع ذلك الاحتفال بين أسباب السرور وأسباب العظمة، وفي أثناء الطعام تقدم أحد الخدم بلحم متبل وضعه أمام فورموزانتا، فأبدت رغبة في أن يرسل ذلك الصنف الى جلالة والدها لأنه من مفضلاته، فسرعان ما أمسك به الطائر وحمله بطريقة خارقة وقدمه للملك. ولما لم يكن أحد قد شاهد شيئاً أعجب من ذلك، دلّله الملك وربت عليه كما تفعل الأميرة، ثم طار عائداً إليها ناشراً في أثناء طيرانه ذيلاً جميلاً أخاذاً كما مد

جناحيه الكبيرين بما فيهما من مختلف الألوان الزاهية ، وبهر الشكل ببدنه الذهبي، حتى لم تبقَ عين إلاّ وثبتت عليه ، ووقف الموسيقاريون بلا حركة ، وامتنع على الانهم أن ترسل بالألحان المؤتلفة، ولم يشتغل أحد لا بالأكل ولا بالكلام ولم يعد يسمع غير همس خامل معبر عن الدهشة والاستغراب ، ومضت أميرة بابل تقبله طول وقت الطعام غير مبالية ان كان في العالم ملوك . فعاود الغيظ والكراهية ملكي مصر والهند وملأ قلبيهما الحقد مضاعفاً ، وصمما على ارسال ثلاثمئة الف مقاتل لطلب الثأر.

أمّا ملك أسقوتيا فقد شغل بدماعة الأميرة ألديا وقد حمله كبر نفسه ان يزدري بغير حقد انصراف الأميرة فورموزانتا عنه، فأبدى نحوها من الاستهانة أكثر مما أبدى من الاحتقار، وقال لصاحبته . «اني أعلم بأنها جد رقيقة ، ولكنها تظهر لي كأنما هي إحدى النساء اللواتي يَهِمن اعجاباً بجمالهن ، ويتصورنَ بأن الرجال قد علكهم شعور الامتنان والشكر اذا تنازلنَ فظهرنَ في المجتمع . واني لأفضل امرأة لينة الجانب رقيقة الاحساس وأتغاضى عن قبح وجهها ، على هذا التمثال البديع . ولك يا سيدتي من الجمال ما لها ، وأنت على الأقل تلطفين بالحديث مع الاجانب ، وأقول لك باخلاص كرجل اسقوتي اني أفضلك على ابنة عمك».

لم يكن الاسقوتي مصيباً في نظرته لفورموزنتا ، فانها لم تكن ذات أنفة وكبرياء كما يظهر عليها ، ولكن تلقت الاميرة ألديا تلك الكلمات بشيء من الاستحسان . وأغلب الظن انهما تركا المائدة وكلٌ منهما راض عن كلام الآخر ، مليء بالثقة نحوه . وبعد العشاء تريض الضيوف في خمائل الحديقة ، فلم يغفل ملك اسقوتيا والاميرة ألديا في العثور على مكان منفرد . ولما كانت ألديا سليمة النية فقد عبرت عن ذات نفسها للاميرة قائلة :

« اني لا أكرهابنة عمي ، ولو انها تفوقني فتنة وجمالاً ، وقدر لها أن تكون على عرش بابل. وهذا العرش في الحقيقة يجب أن يؤول اليّ شرعاً ، ذلك اذا كان في الكون حق . لاني انحدر من الفرع الأقدم لعائلة النمرود وفورموزانتا تنتمي للفرع الاحدث ، فقد نزع جدها جدي عن العرش وقتله » .

فسأل ملك إسقوتيا ، أهذه هي حقوق الوراثة في بيت بابلونيا المالك ؟ وما اسم جدها هذا؟ «إنه كان يدعى ألديا كما أدعى ، وكما كان يدعى والدي ، الذي نفي مع أبي الى أحد أطراف الامبراطورية ، وبعد ان ماتا ولم يعد بيلوس يخشى من شيء ، رغب في أن أربّى مع ابنته، ولكنه صمم ألاّ أتزوج أبداً .

قال الملك : « سوف أنتقم لك ولوالديك ولجدك ، وسأكون المسؤول عن زواجك ،

وحيث أني سأتناول غداً طعام الغداء مع بيلوس، فانتظري بعد غد في الفجر، فسوف أرحل بك، ثم أعود على رأس ثلاثمئة ألف مقاتل وأعيد إليك حقوقك». فوافقت أوليا على ذلك وافترقا بعد أن تعاهدا بشرفيهما ألا يخونا العهد.

أما فورموزانتا العزيزة، فأمرت قبل أن تهجع الى فراشها بشجيرة برتقال في غلاف من الفضة، وأن توضع إلى جانب فراشها ليجثم عليها الطائر. وبعد أن اسدلت ستائر مخدعها مضى وقت غير قصير وهي تحاول عبثاً أن تنام. فقد كان قلبها خفاقاً وخيالاتها ثائرة، فالبطل الأجنبي ما زال ماثلا في وهمها وكأنها تراه يقذف السهم بقوس النمروذ. تومئه وهو يقطع رأس الأسد، ثم رددت قصيدته، وأخيراً مثل لها وقد امتطى الخرتيت هائماً بطريقه في وسط الجموع. فلم تتمالك نفسها وفاضت منها العبرات واكتنفتها الاشجان والهموم تأثراً من تلك الخيالات فصاحت: «هلاّ أراه بعد اليوم؟ أسوف يعود؟».

رد الطائر من أعلا الشجيرة «نعم سوف يعود، أيمكن ان يراكِ احد، ثم لا يرغب في أن يراكِ مرة ثانية».

«يا للسماء! يا للقوى الأبدية! ان طائري يتكلم الكلدانية الفصحى» ثم رفعت الستائر وانحنت على فراشها وقالت.

«هل انت إله هبط الى الأرض، أم أنت أوروماسدس الأكبر يختفي في ذلك الإهاب الريشي الجميل؟ ان كنت هو، فأعد إليّ ذلك الشاب الخلاب!».

رد الطائر «لست إلا حيواناً مجنحاً، ولكني ولدت في زمان كانت لا تزال تتكلم فيه الحيوانات، حيث كانت الطيور والحيات والحمير والخيل والغرانين تتفاهم بلا كلفة مع الانسان. وما كنت لأتكلم امام الناس لئلاّ يقول نساء الشرف في بلاطك إني ساحر، ولن أبوح عن نفسي لغيرك».

حصرت فورموزانتا عن الكلام أمام هذه الأعاجيب مأخوذة بالدهشة مليئة بالرغبة في إلقاء مئة سؤال جملة، وفي النهاية سألته عن عمره فقال «سبعة وعشرون ألفاً وتسعمئة سنة وستة أشهر، فإن عمري يبدأ مع انقلاب الاعتدالين الصغير الذي حدث منذ ثمانية وعشرين ألف سنة من سنيكم، وهناك انقلابات أبعد زمناً من ذلك، وبذا فهنالك كائنات أقدم مني. وتعلمت الكلدانية خلال احدى رحلاتي منذ اثنين وعشرين ألف سنة وقد تذوقت هذه اللغة. وأما اخواني الحيوانات الأخرى فقد أمسكوا عن الكلام في أقليمكم هذا».

«ولماذا يا طائري القدسي»؟

«وا أسفاه! ذلك لأن الناس قد عوّدوا أنفسهم على أكل لحومنا بدلاً من مخالطتنا

وتهذيب أنفسهم معنا . يا للعجب ! ألا يكفي لإقناعهم بأننا اخوانهم أن لنا نفس الأعضاء ونفس العواطف ونفس المطالب والرغبات ولنا فوق ذلك ما يسمونه النفس كالهم ، فلا يجب أن يطبخ ويؤكل إلاّ الفاسد الشرير . فإننا الى حدّ بعيد اخوانكم ، لأنّ الكائن الأعظم القادر على كل شيء ، الحي السرمدي ، قد عقد عهداً مع الانسان ، وبكل وضوح أدخلنا في نفس المعاهدة وقد نهاكم عن ترييب أنفسكم على لحومنا كما نهانا عن مص دمائكم » .

« إنّ خرافات لقمان ، التي ترجمت الى لغات كثيرة ، ستظل الشهادة الأبدية الخالدة على المعاملة التي جريتم علينا معنا منذ زمان بعيد ، وتبدأ كل تلك الخرافات بعبارة ، « عندما كانت تتكلم الحيوانات » .

« وإنه لحقّ أن كانت هناك أسر منكم لا تزال تحتفظ بالتحدث الى الكلاب . ولكن رفضت الكلاب أن تجيب عليهم منذ أن أجبروهم بالسياط ، على الخروج معهم للصيد وإشراكهم في جريمة قتل اخواننا القدماء ، الأيائل والظباء والأرانب ، والحجال ، كما لا تزال لديكم قطعاً شعرية تكلمت فيها الخيل ، وفي كل يوم يحدثهم الحوذية ، ولكن بطريقة همجية وبعبارات مهينة . ولذلك كرهتكم الخيل كرهاً شديداً بعد أن كانت تظهر لكم كثيراً من المودّة والعطف » .

« إنّ أكمل الرجال هم مواطني الأجنبي الذي تعجبين به ، وهي المملكة الوحيدة التي تلقّ فيها نوعكم يبدي الاحترام والكرامة لنوعنا ويتحدثون إلينا ، وفوق ذلك فهي المملكة الوحيدة في العالم التي يقيم فيها الرجال العدول » .

قالت فورموزانتا « وأين تقع مملكة عزيزي المتكبر ؟ ما اسم امبراطورها ؟ لأني لن أصدق بعد ذلك إنه ابن راع ، كما لا أصدق أبداً إنك خفاش ! » .

ردّ الطائر قائلاً « إنه عند بلاد الكنجيين الذين يسكنون الشاطيء الشرقي لنهر الكنج أناس عقلاء وفضلاء محتمين على أعدائهم . وصديقي يدعى « أمازان » وليس ملكاً ولست أعرف ما اذا كان يقبل أن يذل نفسه فيصير ملكاً . إنه يحب مواطنيه حباً كبيراً ، وهو راع مثلهم ، ولكن لا تظنّي أنّ هؤلاء الرعاة يشابهون رعاتكم ، الذين يلبسون الخرق البالية ويرعون أغناماً أجمل منهم أردية ، وفوق ذلك يئنون تحت حمل الفقر والعوز ، وأخيراً يدفعون الى السادة والنهّاب نصف أجورهم السنوية الدنيئة التي يتقاضونها من أسيادهم . وأما الرعاة الكنجيون فقد ولدوا متساوين ، ويملكون قطعاناً لا حصر لها تنتشر في حقولهم الفسيحة ، ترعى على الخضرة الزاهرة ، ولا يقتل شيء من هذه القطعان أبداً ولا تؤكل ، لأن ذلك جريمة عظيمة في تلك المملكة ، فهم لا يقتلون أو يأكلون أي مخلوق يتنفس ،

وإن صوف تلك الأغنام أفضل وأكثر جودة من الحرير وفيه تنحصر أعظم متاجر الشرق. وتنتج أرضهم فوق ذلك كل ما يمكن أن يكون موضعاً لإشباع رغبة آدمي. فتلك الجواهر التي كان لأمازان كل الشرف أن يقدمها إليك، هي من مناجمه. والخرتيت الذي شاهدته ممتطياً إياه، هو الحيوان الذي يركبه الگنجيون عادة. فإنه أكثر الحيوانات زهواً وأعدمها تخويفاً. وفي نفس الوقت أودع حيوان يزين وجه الأرض. فمئة خرتيت وعليها مئة فارس كنجي كافية لتشتيت جيوش لا حصر لها، فقد أقدم ملك من الهند منذ قرنين مضيا لغزو تلك الأمة وكان ذلك جنوناً منه. فقد تقدم يتبعه عشرة آلاف فيل، ومليون محارب وقد كانت الخراتيت تخرق أجسام الفيلة بقرونها، كأنها الخرز الذي أشاهده مرشقاً في «المروشات» الذهبيـة الموضوعة فوق خوانك. وأمّا فرسانهم فكانوا يخرون تحت رماح الكنجيين كأنما هم نبات الأرز يحصده رجال الشرق. وأسر الملك مع ستة آلاف رجل ... أجبر على أن يستحم في مياه الگنج المفيدة للصحة، واتباع نظام المملكة الذي لا يبيح لبشري أن يأكل غير الخضروات التي جعلتها الطبيعة بسخاء غذاء لكل مخلوق يتنفس. أما أولئك الذين يتغذون باللحوم ويدمنون الخمور، فقد استحرت دماؤهم، وتفتتت عقولهم في مئات من النواحي المختلفة، وأصبحت همتهم منصبة على إهراق دماء إخوانهم واتخاذ كثير من السهول الخصبة مدافن تحوط كنائسهم.

أما علاج ذلك الملك من مرضه فقد استغرق ستة أشهر كاملة، وبعد أن فحصه الأطباء ووجدوا نبضه عادياً، أعلنوا ذلك للعصبة الكنجية، ومن ثمت تبع المجلس نصيحة الخراتيت. وبكل إنسانية أرسلوا ملك الهند الى بلاده ومعه رجال بلاطه البلهاء وفرسانه الضعفاء العاجزين، وقد جعلهم هذا الدرس القاسي أكثر تعقلاً. ومنذ ذلك الحين والهنديون يحملون كل احترام وتبجيل للكنجيين، كما يحترم جهلاء الرجال الذين يرغبون في التفقه، الفلاسفة الذين لا يطاولونهم.

قالت الأميرة «أوافقك يا طائري العزيز، ولكن، أيتبع الكنجيون ديناً؟ ألهم دين ظاهر؟»

قال الطائر «بكل تأكيد، فنحن نجتمع لنبذل الشكر الى الله في الأيام التي يكتمل فيها القمر. الرجال في معبد كبير صنع من خشب الأرز، والنساء في آخر، لكيلا تختلط صلواتهم، وتجتمع الطيور في خميلة، وذوات الأربع في سهل، ونشكر الله على كل الخيرات التي منحنا إياها، وعندنا على الأخص ببغاوات تحظ بقدرة فائقة».

«هذه هي صورة من بلد عزيزي أمازان، فهنالك أقيم، وصداقتي له كبيرة كذلك الحب الذي ألهمك إياه. قال وثقت بي فسننطلق معاً لنزوره».

قالت الأميرة : «إنها لعمرة في الحقيقة رقيقة منك يا طائري العزيز» وهكذا كان رد الأميرة وقد وضحت على فمها ابتسامة رقيقة ، وهي تحترق رغبة في تلك الرحلة ، من غير أن تجرأ على التصريح بذلك .

قال الطائر «إني أخدم صديقي ، ولا يعدل سعادتي عملك الأمروري العظيم بمساعدتي إياك» .

خيل لفورموزانتا من فرط سرورها أنها ارتفعت عن الأرض ، فإن كل ما رأت في ذلك اليوم وكل ما ستري وكل ما سمعت وخاصة ما شعرت به في قلبها قد أدهشها انتعاش أولئك المسلمين السعداء عندما يشعرون بأنهم قد تطهروا من كل صلاتهم الأرضية ، فيخيل إليهم أنهم قد بلغوا السماء السابعة وهم في أحضان حورياتهم ، محوط بهم العظمة السماوية والرحمة الإلهية .

الفصل الرابع

ملك مصر يقتل الطائر ، وتقرر الدنيا مع ملك اسقوتيا

أصغت فورموزانتا الليل تتحدث عن أمازان ، وأخذت تدعوه براعيها، ولم تعد تدعه بأي اسم آخر . ومنذ ذلك الوقت أصبح اسم الراعي والحبيب : لفظين تستعملهما جميع الامم مترادفين بغير تمييز .

سألت فورموزانتا الطائر عما اذا كان لأمازان أية خليلة ؟ فلما أجابها الطائر بالنفي ، شعرت بأنها في ذروة السعادة والهناء . وسألته تارة أخرى كيف يمضي حياته ؟ فعلمت ، وقد غمرها الانشراح ، بأنه ينفق كل وقته في عمل الخير ، وفي خدمة الفنون ، وكشف أسرار الطبيعة ، وتهذيب نفسه . وتارة أخرى أرادت أن تعرف إن كانت طبيعة نفس حبيبها من نفس طبيعة طائرها ؟ ولكن كيف يحدث هذا وقد عاش الطائر نيفاً وعشرين ألف سنة ، في حين أن حبيبها لم يعد الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره . ومن ثم ألقت على الطائر مئات الأسئلة المشابهة لهذا ، فكان يجيب عليها بقدر من الحكمة أثار فضولها . وأخيراً غلب النعاس أجفانها وأسلمها الى خيالات الأحلام الجميلة التي توحي بها الآلهة ، والتي في بعض الأحيان تفوق الحقيقة ذاتها ، ويندر أن تفسرها الفلسفة الكلدانية برمتها .

تأخرت فورموزانتا في الاستيقاظ ، وكانت الشمس قد علت في كبد السماء عندما دخل والدها الملك غرفتها . فقابل الطائر جلالته بأدب زائد ، ومشى أمامه ، وخفق بجناحيه ، ومد عنقه ثم جثم على شجيرة البرتقال . أما فورموزانتا فجعلتها الأحلام أكثر فتنة وجمالاً . جلس الملك على فراشها وانحنى عليها حتى اقتربت لحيته الكبيرة من محياها وضمها في حنان ، ثم حدثها قائلاً :

« يا بنيتي العزيزة ، انك لم تتمكني بالأمس من العثور على زوج يوافق رغباتي ، ومع ذلك يجب أن تتزوجي . ان في ذلك سعادة أمبراطوريتي . وقد استشرت النبوءة التي تعلمين انها لا تخطيء ابداً ، وانها توجه كل اعمالي ، فوجدت رغبتها في أن تجربي العالم ، وعلى ذلك يجب أن تبدئي هذه الرحلة .

عجباً ! الى البكنجيين بدون شك ! ولكنها أحست بحماقتها لما تفوهت بهذه الكلمات العاجلة ، وحينئذ رد عليها الملك،وكان يجهل الجغرافيا جهلاً تاماً، عما تعني بالكنجيين ؟ ولكنها استطاعت بسهولة ان تغير مجرى الحديث . وبعد ذلك أخبرها الملك بأنها يجب ان ترحل في حجرتها وانه عين كل الأشخاص الذين سيرافقونها وهم رئيس مستشاري الدولة ، ورئيس الحجاب ، ووصيفة شرف ، وصيدلي والطاثر ، وجميع الخدم اللازمين .

كانت فورموزانتا الى حين وصول أمازان والملوك الثلاثة ، تعيش في قصر أبيها عيشة لا طعم لها . فإنها لم تغادره مرة واحدة وفقاً لتقاليد الملوك المتبعة مع من كنّ في مثل منزلتها . ولذلك سرت كثيراً لخروجها في حجرة بعيدة ، ومضت تحدث نفسها : من ذا الذي يدري ؟ لعل الآلهة توحي لأمازان بنفس الرغبة في الذهاب الى نفس المعبد ، فيسعدني الحظ برؤيته مرّة ثانية ؟ ثم شكرت والدها بكل غبطة قائلة بأنها كانت دائماً تحمل في نفسها حبّاً دفيناً للقديس الذي سوف تزوره .

أقام الملك بيلوس في ذلك اليوم حفلة غداء فاخرة للرجال من ضيوفه ، وقد كانوا صحبة غير متجانسة ، منهم الملوك ، والأمراء ، والوزراء ورؤساء الدين ، وفي قلب كل منهم غيرة متقدة نحو صاحبه . ومضوا يزنون كل كلمة تخرج من أفواههم ، فلا يرسلونها إلاّ بعد أن يزنوها جيداً ويتفحصوها ، حتى لقد ملكت كل منهم خشية مفرطة من صاحبه أولاً ، ثم من نفسه ثانياً . وكان جو المائدة مظلماً كئيباً رغم أنهم أسرفوا في احتساء الخمر . أمّا الأميرتان فقد بقيتا في حجرتيهما ، تفكر كل منهما ، وتتأمل رحلتها العظيمة ، وتناولتا الغداء في حرمها الصغير . وبعد الغداء خرجت فورموزانتا تتجوّل في الحديقة بصحبة طائرها الذي كان يتنقل بين الشجيرات ناشراً ذيله الجميل وريشه القدسي ليدخل في نفسها السرور .

أمر ملك مصر ، وقد لعبت برأسه الخمر وإن لم يثمل ، أحد وصفائه أن يحضر له قوساً وسهماً . وكان الملك في الحقيقة أقل الرماة حذقاً ومهارة في مملكته . فإنه عندما يقذف بسهم يكون الهدف آمن الأهداف . ولكن في تلك اللحظة كان الطائر الجميل مندفعاً في الجو بسرعة تضارع سرعة السهم ، فلم يستطع أن يتفاداه ، ووقع بين يدي الأميرة يتخبط في دمه ، وعاد المصري الى مكانه مرسلاً ضحكة ملؤها السفه والحماقة . وأمّا فورموزانتا فصدعت حجب السماء بأناتها ، وانحدرت منها الشئون فياضة ، ومزّقت شعرها وضربت صدرها ، وعندئذ قال لها الطائر المحتضر في صوت خافت حزين : « أحرقيني ، ولا تتواني عن حمل رمادي الى شرق مدينة عدن القديمة ، وعرّضي رمادي للشمس فوق عمود صغير

من الفرفة والقرنفل » . وما إن قال ذلك حتى أسلم الروح .

أغمي على فورموزانتا وقتاً غير قليل ، ولم تفق إلاّ لتنفجر عيناها بالدّمع وقلبها بالأنّات . أمّا أبوها الذي شاركها حزنها واستنزل اللعنات على فرعون مصر ، فلم يشك في أنّ هذه الحوادث إنما هي نذير بحوادث أعظم . وسرعان ما ذهب يستشير النبوءة ، فأجابت « من كل شيء أثر : حياة وموت ، أمانة وخيانة ، خسارة وربح ، سعود ونكبات » . ولم يفهم الملك ولا أعضاء مجلسه أي معنى لهذه الاجابة ، ولكنه اكتفى في النهاية بأنه قد أتم واجبات العبادة .

كانت فورموزانتا خلال هذا الوقت قد تبللت بالدموع وأتمت مراسم الجنازة للطائر كما وصفها ، وصممت أن تحمل بقاياه الى بلاد العرب مخاطرة بحياتها من أجله ، فجمعت تلك البقايا في آنية صغيرة من الذهب مطعمة بالياقوت الأحمر والجواهر ، بعد أن نزعتها من فم الأسد القتيل .

أواه ! لو أنها تحرق ملك مصر البغيض حيّاً بدلاً من أن تقوم بهذا الواجب الحزن ! هذه كانت رغبتها لكنها تعزّت عن ذلك فقتلت مساعديه ، وفرسيه ، وحاربه الوحشيين ، وفأريه ، وألقت بجثثيه المحنطين في الفرات ، ولو أنها تملك جثة آبيس لما توانت في أن تفرط عليه .

أثارت هذه الاهانة غضب ملك مصر ، فأرسل في الحال يطلب رجاله الثلاثمئة ألف ، ولما رأى ملك الهند أن حليفه قد رحل ، أرسل هو أيضاً في نفس اليوم لرجاله ، وفي نفسه أن يضم الثلاثمئة ألف هندي الى الجيش المصري . وفرّ ملك اسقوثيا في الليل مختطفاً ألديا وهو أبعد ما يكون رغبة في أن يحارب في سبيلها على رأس ثلاثمئة ألف إسقوثي ، ويعيد حقوقها في وراثة عرش بابل ، حيث أنها تنحدر من الفرع الأكبر لعائلة النمروذ .

ورحلت فورموزانتا الفاتنة بقافلة الهجرة في الثالثة من الصباح ، وهي تمني نفسها بالذهاب الى بلاد العرب لتتم آخر إرادة لطائرها العزيز مؤمنة أنّ عدل الآلهة سوف يعيد إليها عزيزها أمازان ، وقد أضحت الحياة بدونه عبثاً لا يحتمل .

عندما استيقظ ملك بابل ووجد أن الجميع قد رحلوا صاح :

« هكذا انتهت الاحتفالات العظيمة ! فأي فراغ مؤلم قد خلفوا عندما مضوا على عجل مسرعين » . وما لبث أن انتابه غضب ملكي السمات ، لما علم أن الأميرة ألديا قد اختطفت فأمر أن يحضر إليه وزراؤه في الحال ، وأن يجتمع مجلس مشورته ، وبينما هم يتأهبون لذلك لم ينس إستشارة النبوءة ، غير أنه لم يفز منها إلاّ بكلمات أصبحت من الشهرة بحيث صنت

جميع أنحاء العالم منذ ذاك الوقت ، وقد قالت « عندما يهمل الأهلون تهيئة بناتهن للزواج ، فإنهن يزوجن أنفسهن » .

وصدرت في الحال الأوامر بتوجيه ثلاثمئة ألف مقاتل الى ملك إسقوثيا . وعندئذٍ أشعلت نار حرب مهولة كان سببها تلك المسرات التي أقيمت في أعظم حفل عرف على وجه الأرض . وأصبحت آسيا المركز الذي تخترقه أربعة جيوش عداد كل منها ثلاثمئة ألف رجل . وجلي أن حرب طروادة التي أدهشت العالم بعد ذلك بعدة عصور ، لم تكن إلا لعب أطفال لذا هي قرنت بهذه الحرب . ولكن ينبغي أن نعي أن عراك الطرواديين لم يكن له من سبب إلا امرأة هرمة خسيسة الأخلاق ، حاولت أن تختطف مرتين ، في حين أن حربنا هذه ثلاثية الأسباب : فتاتان ، وطائر .

توجه ملك الهند لقاء جيشه في طريق متسع كامل النسق عند كشمير ، ويؤدي رأساً الى بابل . وفرّ ملك إسقوثيا مع ألدبا عبر الطريق الجبلي الذي يصل إلى جبل إيموس . أمّا هذه الطريق الجبلية فقد تلاشت في طيّات الزمن الماضي بسبب سوء ادارة الحكومات . واتجه ملك مصر نحو الغرب على ساحل البحر المتوسط الصغير الذي كان يسميه العرانيين الجهلاء في ذلك الوقت بالبحر الأعظم .

وتبعت فورموزانتا الطريق المؤدي الى البصرة ، وكانت تكتنفه أشجار النخيل الباسقات فتمده بظل دائم ، وثمر خلال كل الفصول . وكان المعبد الذي ستؤدي واجبات العبادة فيه في البصرة نفسها . وكان القديس الذي أقيم له هذا المعبد ، على نفس صورة القديس الذي عبد بعد ذلك في لمبساقوس ، وقد أصاب نجاحاً كبيراً في تهيئة الأزواج للفتيات الصغيرات . والواقع انه القديس الاقدس في آسيا كلها .

وفي الحقيقة لم يكن لفورموزانتا أية رغبة في الذهاب لقديس البصرة ، بل انحصرت كل رغبتها في أن تحظى بمرزها الراعي الكنجي ، والحري حبيبها أمازان . فاقترحت أن تبحر من البصرة ثم تلقي برحلها في أرض الحجاز لتنفذ ما أوصى به طائرها الميت .

لم تكد فورموزانتا تدخل الى فندق جميل حيث أعدّ لها أتباعها كل أسباب الراحة ، حتى علمت بأن ملك مصر قد سبقها اليه . فانه لما علم من عسسه بالطريق الذي تيممته ، بدّل طريقه في الحال تتبعه حاشيته المقيمة ، حتى وصل الى الفندق ، فترجل عن جواده وأقام حراساً على جميع الأبواب ، ثم توجه الى غرفة فورموزانتا حيث بادرها قائلاً .

« أيتها الآنسة ، إنك المرأة التي أجد في طلبها ، لكنك لم تلقِ اليّ بالاً عندما كنت في بابل . إنه من العدل أن تعاقب الهوائيات ذوات الكبر والتشامخ . هل لك أن تتلطفي

وتتناولي معي عشاء اليوم ، على أن يكون تصرفي معك معادلاً رضائي من تصرفك ! »

أدركت فورموزانتا أنها الجانب الأضعف ، ورأت أنه من الحكمة ورجاحة العقل أن يتصرف الانسان بحسب الظرف الذي يحيط به ، فصممت على التخلص من ملك مصر بحيلة بريئة ، ونظرت إليه من طرف عينيها تلك النظرة التي عرفت فيما بعد ذلك من العصور « بغمز العين » ومضت تحدثه برقة ، وأدب وتواضع ، ودلال ، وجملة أخرى من ضروب الفتنة تكفي لأن تخلب أعقل العقلاء ، وتخدع أنبه الناس .

« أعترف يا سيدي أني اغضضت دائماً من نظري عند ما شرفت أبي الملك بزيارتك ، فكنت أخشى بعض عواطف تختلج في نفسي وخشيت أن تنم عنها سذاجتي ، وكنت أرتجف خوفاً من أن يلحظ أبي ومنافسك ، تفضيلي إياك ، وإنك لجدير به . أما الآن فأستطيع أن أعلن عن عواطفي ، فأقسم لك بالعجل آبيس الذي لا أحترم من شيء في العالم أكثر منه بعدك بأن اقتراحك فتنني . وقد تشرفت بمؤاكلتك بصحبة والدي ، وسوف يزيد شرفي بأن أؤاكلك على انفراد مرة ثانية ، على أن يشاركنا في الشراب رئيس حجابك ، فقد تبين لي في بابل أنه محدث بارع . ولدي قدر جيد من خمر شيراس المشهور . وستصيبان منها . إني لأنظر اليك نظرتي لأعظم الملوك ، وأحب الرجال » .

غيرت هذه المناغمة من رأي ملك مصر ، فقبل مشاطرة رئيس حجابه له في الشراب ، ثم مضت الأميرة تقول بأن لها رجاء آخر هو أن يسمح لها بالتحدث الى صيدليها الخاص ، معقبة بأن النساء دائماً تنتابهن بعض الأوجاع الخفيفة التي تتطلب العناية ، كالجفرة في الرأس مثلاً ، أو اضطرابات في القلب أو مغص في الأمعاء وما شابه ذلك من الأمور التي تستدعي الرعاية والمساعدة . وأني لأشعر أنني في حاجة الى الصيدلي وآمل ألا ترفض لي طلباً ، إذ دل على شيء ، فإنما يقوم شهادة على ثقة منك بسيطة بشخصي » .

أجاب الملك « إني أعرف الحياة جيداً ، ولا أرفض لك مثل هذا الطلب العادل ، فسآذن للصيدلي أن يقدم لك خدماته حتى يحين وقت العشاء ، ولقد يخيل إلي أن الرحلة قد أنهكتك بعض الشيء ، وانك تحتاجين الى إحدى وصيفاتك ، فاستدعي أحبهن الى قلبك . واني بعد هذا كله رهن أوامرك وطوع مشتهياتك » ثم انصرف .

حضر اليها الصيدلي ووصيفة تدعى « إرلا » وكانت الأميرة تثق بها ثقة عمياء فأمرتها باحضار ست زجاجات من خمر شيراس مع العشاء ، وأن تسقي كل الحراس الذين أمرهم ملك مصر أن يقبضوا على ضباطها من ذلك الخمر . ثم أمرت الصيدلي أن يضيف الى الزجاجات عقاراً مخدراً كان يحتفظ به ولا يفارقه ، ومن شأنه ان يسلم من يتعاطى منه شيئاً الى

نوم عميق أربعة وعشرين ساعة . فأطاعها الصيدلي بثقة تامة . ومن ثمت عاد الملك بعد نصف ساعة ومعه رئيس حجابه . وكان حديث العشاء مرحاً ، فشربت الزجاجات كاملة مسترفقين بأنه لا يوجد في مصر مثل هذا الخمر . كذلك لم تهمل الوصيفة في القيام بمهمتها ، ولم تتناول الأميرة قطرة واحدة قائلة أن طبيبها أمرها باتباع نظام خاص . ثم لا بدهم نوم عميق .

كان رئيس الحجاب يلبس لحية مستعارة من أجمل اللحى التي تليق برجل في مثل منزلته ، فانتزعتها فورموزانتا بمهارة فائقة ، وحاكتها في شريط من القماش ولبستها ، وارتدت لباس الكاهن ، وزينت نفسها بكل أوسمة الشرف التي له . وأخذت إرلا ثوب حافظ الأثواب الكنسية للاله إيزيس ، وبعد ان تحلت فورموزانتا بأريقه وجواهره ، غادرتا الفندق بين صفوف من العسكر يغطون في نوم أعمق من نوم أسيادهم ، وقد أعد لها خادمها عند الباب جوادين ، غيرانها لم تتمكن لن تصحب معها اي من ضباط حاشيتها حذر ان يمنعهم حارس الباب الأكبر .

مرت فورموزانتا وإرلا بين صفوف من الجند مختلفة الرتب ، وقد ظنوا ان الأميرة الكاهن الأعظم ، فكانوا ينادونها بقولهم « يا أبي المحترم » ويسألون الغفران . وبعد اربعة وعشرين ساعة وصلتا الى البصرة قبل ان يستيقظ الملك ، وخلعتا ما تنكرتا به من الثياب ، خشية ان يبعث لباسهما بعض الشك في الناس .

ومضتا تستعدان للسفر بسفينة كاملة العدة شطر بواغيزهرمز عند شواطىء عدن الجميلة في الحجاز ، وكان لحدائق عدن شهرة فائقة اذ كانت في ذلك الوقت موطناً لأعاظم بني البشر ، وقد نسقت على غرار الحقول الالوزية ، وحدائق هسپريدس ، والجزر السعيدة . وقد تخيل الناس ان في تلك الأقاليم الدفيئة لا يوجد هناك اعظم من الظلال الوارفة والنهيرات الهامسة ، ولن يعيش الانسان دائماً في السماء مع الخالق الاول ، وان يتجول في جنة الفردوس ، مثلهم كمثل اولئك الذين يثرثرون من غير أن يفهم بعضهم بعضاً ، أولئك الذين ليس لهم آراء معينة او تعبيرات واضحة .

عندما بلغت الأميرة ارض عدن ، صرفت كل همها الى اقامة المراسم الجنائزية التي طلبها طائرها العزيز ، ثم جمعت بيديها الجميلتين بعضاً من القرفة والترقص ، ولشد ما كانت دهشتها إذ رأت عند ما نثرت حطام الطائر من فوق هذه الحرقة الجنائزية ، انه اشتعل من تلقاء نفسه وبسرعة عظيمة . لم يظهر في مكان الحطام شيئاً الا بيضة كبيرة خرج منها الطائر الجميل أكثر بهاء وروعة من ذي قبل ، فكانت تلك اللحظة من أسعد لحظات حياتها ، إذ لم يكن من شيء أعز عليها من طائرها ، الا مرى رضائها ، ذلك الذي كان دائماً فوق آمالها .

قالت الأميرة « أرى بوضوح أنك بذاتك العنقاء التي طالما سمعت عنهـا ، واني لأكاد أقضي فرحاً ودهشة ، بيد أني لا أعتقد في بعثك ، لـكن من حسن حظي ان اقتنع بذلك.

قالت العنقاء « البعث في الحقيقة أحد الأشياء البسيطة في الوجود ، فانه ليس بشيء أ كثر من ان تولد مرتين ، وكل شيء في الـكون أثر من آثار البعث ، فاليساريع تنبعث فراشات ، والبذرة في الأرض تتولد منها الشجرة ، وكل الحيوانات التي تدفن في التراب تستحيل زروعاً وحشائش ترب بها حيوانات أخرى ، فتتحول بسرعة عظيمة جزءاً من جوهرها . إن كل الذرات التي تؤلف الأجسام تنقلب موجودات مختلفة ، وفي الحق انني الـكائن الوحيد الذي تفضل « ارمزد » وبعثني في صورتي الأولى .

أجابت فورموزانتا وقد حملها منذ اللحظة الأولى التي شهدت فيها أمازان والعنقاء ، جو من الدهشة والعجب « أستطيع بكل صعوبة أن ادرك ان الخالق الأول قادر على أن يخرج من بقاياك عنقاء على غرار الشبه بك ، أما أن تعود ذات الشخص ، وبنفسك الأولى ، فذلك ما لا أستطيع أن افهمه بجلاء . خبرني ما الذي حل بنفسك بعد أن جعلت بقاياك في جيبي (مدموزاك) »

قال « تأملي لحظـة واحدة ، أليس من الهين على ارمزد العظيم أن يستمر في التأثير على ذرة واحدة من جثماني ، ويعيد اليّ الحياة ؟ فقد سلبني من قبل ذلك الحاسة والفكر والذاكرة ثم وهبني اياها مرة أخرى . وسواء أوضع سره في ذرة من النار الأولية كامنة في جثماني أو في مجموع أعضائي ، فتلك مسألة في الحقيقة ليست ذات بال . إن الانسان كالعنقاوات لا يعرف مستقبل الحياة ، ولـكن السر الذي وهبني إياه الخالق الأول هو لا عادتي اليك حياً ! وأن أعيش تلك الثماني وعشرون الف سنة التي يجب أن أحياها قبل بعثي المقبل بصحبتك وبصحبة عزيزي أمازان » .

قالت الأميرة « تذكر يا عنقائي العزيز ما خبرتني به في بابل ولن انساه ، والذي يبعث في نفسي الأمل في ان ارى من أحب مرة أخرى . ولا بد لنا من ان نزور الـكنجيين معاً ، فمن الضروري ان اعود إلى بابل ومعي امازان » .

قال « هذا ما صممت عليه ، وليس لدينا لحظـة نضيعها عبثاً . ويجب ان نبحث عن أمازان من اقرب الطرق ، وذلك بطريق الجو . لأن لي غرفينيز من اصدقائي ، على بعد مئة وخمسين الف فرسخ من هنا ، وسأكتب اليهما رسالة يحملها بريد الحمام ، وسوف يصلان قبل المساء . ولدينا من الوقت ما يتسع لصنع هودج بأدراج يمكن ان تحتفظي فيها كفايتك من الطعام . وسوف تتميز ووصيفتك براحة تامة فيه . ان هذين الغرفينيز من اضخم أنواع جنسهما ويستطيع كل منهما ان يحمل احد عمودي الهودج في مخلبه ، ولا شك في ان الوقت ثمين جداً » .

وفي الحال ذهبت فورموزانتا مع الطائر الى متجد من معارفه ليصنع لهم هودجا ، فأتم عمله في أربع ساعات ، واحتفظوا في ادراجه ببعض ارغفة صغيرة وفطائر أفضل مما في بابل من مثلها ، وبزر من الليمون الكبير والتفاح والكاكاو والفستق ، وجرار خشبية فضلها على خمر شيراس ، كفضل هذه على خمر سورينام .

وصل الغرفينان عدنا في الوقت المحدد ، وكان الهودج مريحا خفيفا ، على صلابته ومتانة بنائه . فأخذ كل من فورموزانتا وايرلا مكانهما فيه وحمله الغرفينان في مخالبهما وكأنهما يحملان ريشة ، واتخذا مجتهما نحو الكنج في سرعة سهم يشق الهواء . وكان العنقاء يطير خلفه ، مرة ويجثم على حافته أخرى ، ولم يتوقف الغرفينان غير مرة واحدة ليتزودا بالماء ولتتناول المسافرتان بعض المرطبات .

وحين ازكب بعد لأي الى مملكة الكنجيين ، خفق قلب الأميرة بالحب والأمل والسرور وأهبط العنقاء الهودج امام بيت أمازان ، فعلموا انه رحل منذ ثلاث ساعات ولا يدري أحد أي الاقطار اراد .

لم تكن هناك من كلمات حتى في لغة الكنجيين تعبر عن مدى خيبة أمل فورموزانتا صاح العنقاء « يا حسرتاه ! هذا ما كنت أخشى ، ان ثلاث الساعات التي امضيتها في الفندق على طريق البصرة مع فرعون مصر الشقي ، ربما كانت ثمنا لسعادتك بقية الحياة . واني اخشى تماما ان تفتقد امازان بلا امل في العثور عليه » .

سأل العنقاء هل يمكن ان يقابل ام امازان ، فأجابه الخدم ان زوجها قد مات منذ يومين ولا يمكنها ان تكلم احدا . واذكان للعنقاء بعض النفوذ ، أدخل الأميرة الى قاعة استقبال فاخرة ، يغشي جدرانها خشب البرتقال المطعم بالعاج .

قام رعاة أمازان من الرجال والنساء في أكسية بيض طويلة مذهبة الأطراف ، يقدمون لها مثات من طيب المأكل في آنية مسطحة من الخوف ، بريئة من الاقذار والعفن ، كالارز والساغو والشعرية والمكرونة ، والعجة والبيض ، واللبن والقشدة والجبن ، وصنوف أخرى مختلفة ، مع خضروات وفواكه لذيذة الطعم فريدة في نكهتها ، ليس لها من نظير في الاقاليم الاخرى ، كما قاموا بتقديم سوائل مرطبة تفضل أفخر أنواع الخمر .

وبينما كانت فورموزانتا تستلقي على فراش من الورد ، وتتناول من الطيبات التي قدّمت إليها ، إذ بأربعة من الطواويس تتناغى برحة مهللة ، فانفقت تروّح عليها بأجنحتها الزاهية . وأخذ مثنا طير ومئة راع وراعية يرتل كل منهم أنشودة مختلفة عن الأنشودة التي يرتلها الآخر ، وانطلق مع أغنيات الرعاة جمع من الشراشير والبلابل والرقيقات يصلنّ بتنغيماتهن

العالية . حينئذٍ اعترفت الأميرة ، أنه لو كان هناك من عظمة تزعظمة بابل لتضاءلت أمام جلال الطبيعة في بلاد الـكنجيين ، وبينما كانت هذه الموسيقى المحببة الجميلة ترسل أنغامها الشجية كانت الدموع تنهمر من عيني الأميرة ، فقالت للآنسة إرلا :

« إنّ هؤلاء الرعاة والراعيات والبلابل والزقيقات، لمتحابون جميعاً . أمّا أنا فمحرومة من البطل الـكنجي الذي إليه تتجه كل عواطفي وأفكاري . وبينما كانت تلك المقارنات تتخايل أمامها كانت دموعها المنهمرة تتخطى ما قام في نفسها من ضروب العجب والانذهال» .

ثم تقدمت العنقاء الى أم أمازان قائلة : « لا يمكنك ياسيدتي أن تتجنبي رؤية أميرة بابل فإنك تعلمين ...

قالت « نعم . أعلم كل شيء ، وحتى مخاطرتها في الفندق وهي في الطريق الى البصرة . إنّ طائراً أسود قص لي هــذا الصباح كل ما حدث ، فكان له من سيء الوقع ما أجنّ ولدي وجعله يغادر منزل والديه » .

قال « ألم تعلمي أن الأميرة أعادتني الى الحياة » .

أجابت « لا يا طفلي العزيز ، إنّ الطائر الأسود أخبرني بموتك الذي لا يتعزى عنــه . فقد تأثرت كثيراً لتلك الخسارة ، ومات زوجي ، ولترك ولدي منزله في هــذه العجلة . فأمرت أن يغلق بابي في وجه الجميع . هذا ما أخرني عن إدخال الأميرة ، وقــد شرفتني بزيارتهــا . على انّ لديّ من الأمور الهامة ما أود أن أحيط الأميرة علماً به وأود لو شهدتَ الحديث .

وذهبت لترى الأميرة في غرفة أخرى . وكانت تتعثر في خطاها ، فقد بلغت من العمر قرابة ثلاثمئة سنة ، لـكن لا يزال الجمال عليها طابع له روعة ، تدلنا على أنها عندما كانت في الاربعين أو الخمسين بعــد المئتين ، لابدّ وأنها كانت ذات حسن عظيم . وتأملت فورموزانتا في احترام عظيم يشوبه جو من التلهف والحزن أثار في نفس الأميرة كثيراً من الطرب والانشراح .

عزّتها فورموزانتا في فقد زوجها فقالت الأرمل : وا أسفاه ! إنّ هنالك أسباباً لحزنك على فقده أكثر مما تتصورين .

ردّت فورموزانتا « إني متأثرة بدون شك فإنه والد ... » ومنعتها عبراتها عن تتمة الـكلام . ثم استطردت قائلة « قمت لأجله بهذه الرحلة ، التي نجوت من أخطارها بأعاجيب ، وبسببه تركت أبي وأعظم بلاط على وجه الأرض ، وعاقني ملك مصر الذي أمقته . ثم بعد أن افلت من عبوديته ، واخترقت الجو بحثاً عن الرجل الوحيد الذي احبه ، لم أكد اصل

حتى فرّ مني » ! ثم انحدرت على خديها دموع حزينة، وسكتت .

قالت أم امازان « عندما اسرك ملك مصر وانت في الطريق الى البصرة ، وتناولت معه العشاء ، ثم ملأت له كأساً طافحة من خمر شيراس ، ألم تلحظي طيراً اسود بالغرفة » .

قالت الأميرة « نعم . أتذكر الآن انه كان بالغرفة طير اسود لكني لم اعره أدنى انتباه. ولقد أتذكر الآن انه عند ما همّ ملك مصر بأن يقبلني طار من النافذة مرسلاً صيحة عالية، ثم اختفى » .

«وا أسفاه ! هذا ياسيدتي سبب شقائنا ، فقد أرسل ابني هذا الطائر الأسود ليوافيه بأخبارك وبصحتك وبكل ما يحدث في بابل ، ثم اقترح أن يذهب إليك سريعاً ويلقي بنفسه عند قدميك ويكرّس بقية حياته لخدمتك . إنك لا تعلمين مقدار حبه لك وحدبه عليك . فإن كل الكنجيين عيون مخلصون ، لكن ولدي أكثرهم عاطفة وأشدهم اخلاصاً . فلما وجدك الطائر الأسود مرحين في الفندق مع ملك مصر والكاهن اللئيم ، ثم شاهدك تعانقين هذا الملك الذي قتل العنقاء والذي يحمل له ولدي كرهاً دفيناً ، طار عنكما وقد ملكه مقت عظيم من جراء خطئك الجسيم ، وعاد اليوم فأخبرنا بكل شيء» .

«ياللسماء ! إنه لموقف حرج . في نفس الوقت الذي كان فيه ولدي يندب فقد والده والعنقاء الحكيم ، أخبرته بأنه ابن عمك عمساء» .

«يالله ! إبن عمي ! أيمكن هـذا ياسيدتي ؟ كيف يكون ذلك ؟ ألهذا القدر سعيدة أنا بقرابته ، وشقية بخصامه ؟

قالت الكنجية « إن ولدي ابن عمك ، وسوف أقنعك بذلك ، إلاّ أنه لن ينسى الألم الذي أثاره في نفسه معانقتك ملك مصر » .

صاحت فورموزانتا الفاتنة « أقسم به ياعمتي العزيزة ، وبكل القوى الأورزدية ، أن تلك المعانقة كانت بريئة تماماً من الإثم . وهذا برهان قوي لاثبات حبي لولدك ، فلأجله خالفت والدي وبسببه رحلت من الفرات الى الكنج ، ووقعت بين يدي فرعون مصر الخسيس ولم أتمكن من الافلات منه إلاّ بالخديعة ، ثم إني لأدعو بقايا العنقاء التي كانت في جيبي للشهادة ، . لكن كيف يكون ولدك وقد ولد على شواطىء الكنج ابن عم لي ، وقد حكمت عائلتي على شواطىء الفرات قروناً عديدة ؟ »

قالت الكنجية المبجلة « إنك تعلمين ان عمك الأكبر ألديا كان ملكاً لبابل وأن والد بيلوس انتزع منه العرش . وتعلمين أن ألديا هذا كان له ولد يدعى ألديا كذلك ، فلما طارده والدك ، فرّ الى مملكتنا واتخذ اسماً مستعاراً، وتزوج مني فأنجبت له الأمير الصغير أمازا

امازان ، أكثر الناس جمالاً وشجاعة وكرماً ، ولكنه الآن أكثرهم تعاسة وشقاء . ذهب الى حقل بابل مأسوراً بجمالك الفتان ، فشغف بك منذ رآك ، وحزن الآن لاعتقاده بأنك خنته ، وربما لا أراه بعد ذلك » . ثم أفضت إليها بجميع أسباب مائلة ألديا . لكن فورموزانتا لم تبد أي اهتمام بذلك .

قالت فورموزانتا : « عجباً ياسيدتي ! ألنا أن نبحث عن الغرض الذي يحرك رغبتنا ؟ إن قلبي يصدقك تماماً . ولكن أين ألديا أمازان ؟ أين قريبي ؟ أين ملكي أين حياتي ؟ اي الطرق اتبع ؟ فسأجد في اثره ، وسأبحث عنه في كل كرة خلقها الاله الازلي ، والتي يكون لامازان اذا هبطها أزين ما فيها . سأذهب الى السهول والمزارع والديران . سأذهب وأفضي له بحبي واقنعه ببراءتي » .

ثم إذ العنقاء برأ الاميرة من الجريمة التي نسبها اليها الطائر الاسود ، إلاّ انه من الضروري ألاّ يظل امازان مخدوعاً وينبغي لذ يعثر به . فأوفدت الطيور في كل فج ، ورحلت الخراتيت الى كل صقع ، ثم وصلت الانباء اخيراً بأن امازان في طريقه الى الصين .

قالت الاميرة : « حسن ، إذن لنرحل الى الصين ، فسأبحث عنه متحدية كل صعوبة وكل خطر ، فالرحلة ليست طويلة وآمل أن اعيد اليك ولدك في اربع عشرة يوماً على الاكثر » .

وعندئذٍ انحدرت الدموع من عيني الاميرة وأم امازان ، ثم تعانقتا في حنان صدر من اعماق قلبيهما ، وسرعان ما أمر العنقاء بعربة يجرها ستة خراتيت ، وجهزت ام امازان ألفي جواد بفرسانها من الكنجيين ، واهدت الاميرة آلافاً من الجواهر النادرة . امّا العنقاء فقد ساءه الحادث المنكر الذي تسبب فيه الطائر الاسود بحمقه ، فأمر جميع الطيور السود ان تغادر البلاد . ومنذ ذلك لم ير واحد منها على شطآن نهر الكنج .

الفصل الخامس

طواف فورموزانتا في الصين واسقوثيا بحثاً عن أمازان

حلت الحرائيث فورموزانتا وإرلا والعنقاء الى كنبالو عاصمة الصين في أقل من ستة أيام ، وكانت تلك المدينة أضخم من عاصمة بابل وتختلف في ظاهرها عنها كل الاختلاف ، وأصبح من المحتمل أن تبعث تلك المناظر المختلفة والأحوال الغريبة بعض السلوى في نفس فورموزانتا لو لم يستحوذ أمازان على انتباهها جملة .

لما علم أمبراطور الصين أن أميرة بابل على أبواب المدينة ، أرسل في الحال أربعة آلاف مأمور صيني في أثواب الاحتفالات لاستقبالها ، فانحنوا خشماً لديها وتقدموا اليها برسالة كتبت بأحرف من الذهب على نسيج من الحرير الارجواني . وحينئذ قالت فورموزانتا أنها لو ملكت أربعة آلاف لسان لما تأخرت في أن تفكر كل منهم ، أما وان ليس لها غير لسان واحد ، فإنها تأمل أن يكتفوا بأن تفكرهم إجمالاً . ثم وجهوها الى حيث كان الامبراطور باحترام عظيم .

كان الامبراطور أحكم وأعدل ملوك العالم وأكثرهم حباً للخير ، فهو أول من فلح حقلاً صغيراً ، زرعه بيديه الامبراطوريتين ليجعل من الزراعة عملاً شريفاً عند رعيته . وبما يلاحظ أن قوانين كل البلاد الاخرى قد قصرت العقوبات على الجرائم فحسب ، أما هو فأول من نص في قوانينه على ثواب الفضيلة والخير . وبادر فنفى عصابة من المبشرين هبطت من أطراف الغرب آملة أن تفلح في أن تجبر الصينيين على أن يفكروا كما يفكرون ، فظفروا بالثروة والتشاريف تحت ستار الدعوى بالعمل على تلقين الحقائق ، وقد برر طردهم بتلك الكلمات التي سجلت في السجلات التاريخية للامبراطورية :

« يمكنكم أن تفعلوا هنا كل ما فعلتموه من أضرار خارج بلادي . حضرتم لتلقنوا مذاهب الاضطهاد لأكثر الأمم تسمحاً على وجه الأرض . ولذا أردكم ثانية حتى لا اضطر أن أعاقبكم ، وسوف تسافرون الى حدود مملكتي بعظيم الاحترام ، مزودين بكل

الحاجيات التي تلزمكم حتى تصلوا الى حدود نصف الكرة التي هبطتم منها . فأرحلوا بسلام إن استطعتم ان تكونوا رسل سلام ، ولا تعودوا » .

سمعت اميرة بابل تلك الكلمات ورأت ذلك الحزم ، فضرها الانشراح ، وتأكدت تماماً من حسن استقبالها في البلاط حيث انها كانت بعيدة كل البعد عن أي مذهب من مذاهب التعصب . وتفضل أمبراطور الصين حينما تناول معها طعام الغداء وجهاً لوجه، أن يتحاشى الرسميات الثقيلة . ولما قُدِّمت له العنقاء دللها بلطف وأجلسها على مقعده . وتوسلت اليه الاميرة أن يبحث عن أمازان في مدينة كبالو ، وأفضت اليه خلال ذلك بتمامرآتها غير مخفية تلك العاطفة الجارفة التي تحرق قلبها شوقاً نحو هذا البطل الشاب .

قال امبراطور الصين «انه شرَّف حاشيتي بزيارته ، فتنت بهذا الامازان اللطيف. والحق انه في أشد حالات الكرب والضيق ، ولكن رقة حاشيته وكرم خلقه ، ولا شك ، أشد تأثيراً من كربه وضيقه . ليس من رجالي المخلصين من هو اعظم منه قدرة ، ولا من رجال الدين عندي من يفوقه معرفة ، ولا من رجالي العسكريين من يبزه في المهارة الحربية او البطولة . فلو اصابني سوء الحظ وخذلني التيان والقانكتي ورغبت في ان أكون غازياً ، لما طمعت في شيء طمعي في ان يكون امازان على رأس جيوشي . ولن يداخلني ادنى شك في اني سأفتح الكون كله . ولشد ما آسف اذ كان الحزن في بعض الأحيان سبباً لفعله» .

قالت فورموزانتا بكثير من الانفعال والحزن مازجهما بشيء من التأنيب واللوم «عجباً ! لِمَ لَمْ تدعه ليتناول طعام الغداء معي ؟ لشد ما صدمتني . أتوسل اليك ان ترسل في طلبه حالاً» .

اجاب امبراطور الصين « انه رحل في الصباح الباكر ولم اعرف وجهته » .

إلتفتت فورموزانتا للعنقاء وقالت : « هل رأيت في حياتك من آلمه هي أتعس مني ؟ ثم استطردت حديثها مع الامبراطور قائلة : « كيف سمح لنفسه أن يغادر بلاطكم العظيم فجأة ، هذا البلاط الذي اعتقد ان الانسان يجب أن يقضي فيه حياته » .

قال الامبراطور : « اسمعي حقيقة الامر : أحبته إحدى فتيات العائلة الجليلات حباً جنونياً ورغبت في مقابلته ظهر اليوم ، إلا أنه رحل في الفجر تاركاً لها هذه القصاصة التي كان ثمنها فيضان جارف من الدمع » .

« أيتها الآنسة المنغولية الحسناء ، إنك لتستحقين قلباً لم يقدم من قبل على مذبح آخر . إني أقسمت للآلهة الخالدين ألا أحب أحداً غير فورموزانتا ، أميرة بابل ، وأعلمها كيف يقهر الانسان رغبات قلبه بالتنقل والرحلات . ومن سوء الحظ أنها استطاعت ان تفوق دهر

الخميس ! إني لأتعس الرجال ! فقدت أبي ، والعنقاء ، وضاع أملي في حب فورموزانتا ، فتركت أمي في كرب وغم وضيق ، وهجرت منزلي ووطني ، ذلك بأني لم أحتمل البقاء ساعة واحدة في المكان الذي بلغ سمعي فيه أن فورموزانتا تحب سواي ثم أقسمت لأجوبن العالم ، وأكونن مخلصاً . فاذا انا حنثت بوعدي ، فقد تحتقرينني ، وقد تعاقبني الآلهة ، فاختاري ياسيدتي حبيباً آخر وكوني مخلصة مثلي » .

صاحت فورموزانتا الجميلة « يالعجب ! اعطني هذا الكتاب العجيب . ان فيه بعض العزاء ، ثم إني لسعيدة برغم سوء حظي . أمن أجلي يتبرأ أمازان من قرب أميرة الصين ! ليس في العالم من هو أشد منه ثباتاً وعزماً . إنه زودني بأعز مثل أعلى . والعنقاء تعلم أني لست في حاجة اليه . كم هو قاس أن يحرم انسان من حبيبه ، تلقاء معانقة منحت بعفاف حقيق . لكن خبرني الى أين ذهب ؟ تلطف واعلمني . لسوف أرحل في الحال » .

أخبرها الامبراطور أن حبيبها أخذ طريقه إلى اسقوتيا ، على ما وصل اليه من التقارير . جهزت الخراتيت في لحظة ، واستمرت فورموزانتا في رحلتها مع العنقاء ووصيفتها إرلا وحاشيتها ، بعد أن حباها الامبراطور بكثير من العطف .

عندما وصلت اسقوتيا بان لها إلى أي حد تتباين الحكومات ويختلف الأفراد ، وأنهم سيظلون على اختلافهم وتباينهم ، حتى تعم العقول الكريمة ، التي حملت مشاعل النور ، شيئاً بعد شيء ، تلك السحابة السوداء التي كست الارض أجيالاً كثيرة والى أن تنبت في الأقاليم المعجبة نفوس عظيمة يكون لها من الاحتمال والقوة ما يكفي لقلب البهائم أناسي .

ـ ليس في اسقوتيا مدناً ، ومن ثمت ليس فيها فنون رفيعة ، لا يرى هناك من شيء غير الحقول الشاسعة الفسيحة حيث تعيش القبائل في الخيام والصوامع ، فكان لتلك المناظر من الوقع ما أقحم نفس الاميرة اشمئزازاً وروعاً . فلما سألت في أية خيمة أو صومعة ، يقطن الملك ، علمت أنه رحل منذ ثمانية أيام على رأس ثلاثمئة الف فارس ليهاجم مع الاميرة ألديا الفاتنة التي فرت معه .

صاحت فورموزانتا « ماذا ؟ أفر مع ابنة عمي ، ما كنت لأتصور مثل ذلك . ثم ماذا ؟ أأصبحت ابنة عمي ملكة ، وكانت تسعد السعادة كلها في توددها اليّ ، ولم أتزوج بعد ؟ » ثم توجهت لساعتها شطر صومعة الملك تدفعها رغبة خاصة .

أضفت مقابلتهما في مثل هذه الأقطار البعيدة ، والحوادث التي افضت بها كل منهما الأخرى على هذه الاحاديث نوعاً من الحدة ، جعلتهما تنسيان أنهما كانتا على تنفر ، وحل في نفسيهما محل العطف الحقيقي ضرب من الوهم المادي فتعانقتا والعبرات في مآقيهما .

ثم بلغت منهما ظواهر دلت على اخلاص وتعاطف، قلما يكون لهما من مثيل بين جدران القصور.

تذكرت ألديا الفتاة والوصيفة إدلا ، وأهدت فورموزانتا من جلود الوعول الثمينة. فأهدتها فورموزانتا لقاء ذلك بعض الجواهر. أمَّا الحرب بين الملكين فكانت موضوع الحديث بين الناس. وقد رثينا لمصير الجنود الذين اجبروا على خوض غمارها ، وذهابهم ضحية لنزوات الاميرين ، ذلك في حين أن شخصين كريمين قد يفضان ما بينهما من خصام في أقل من ساعة ، من غير أن تسقط رأس واحدة. ولكن مدار الحديث كان عن ذلك الاجنبي الذي قهر الأسود ، وأهدى أثمن الجواهر في الكون ، وكتب القصائد الغزلية ، ثم ارتد أتعس الرجال وأشقاهم ، لأنه آمن وصدق بما نقله اليه طائر أسود.

قالت ألديا « إنه أخي العزيز ».

صاحت فورموزانتا « إنه حبيبي ، ولا أشك في إنك رأيته. ألا يزال هنا ؟ إنه ابن عمك يا ابنة العم فإنه كما غادر ملك الصين ، اذ انه يعلم انه اخوك ».

« أو رأيته إياه ! » « نعم : أمضى أربعة أيام كاملة معي. عجبًا يا ابنة العم ! ما أشد لومي على أخي لأن قولًا مريضًا قلب عقله رأسًا على عقب. انه يطوف العالم هائمًا بغير غاية. تخيلي مقيم ذهوله فقد رفض مقابلة أجمل وأفتن امرأة في اسقوثيا ثم رحل بعد أن ترك لها كتابًا أدخل في نفسها اليأس وتوجه لزيارة السيريين ».

صاحت فورموزانتا مهللة « أشكرك يا إلهي ، رفض آخر في سبيلي ! إن حظي لمن السعادة بحيث يكون دائمًا فوق آمالي ، كذلك سوء حظي فقد فاق كل أوهامي ومخاوفي. أعطني هذا الكتاب الساحر ، سوف أرحل في أثره وكلي ثقة به. وداعًا يا إبنة العم. أماز ان بين السمريين وسأطير وألحق به ».

اعتقدت ألديا أن إبنة عمها لا تزال في اضطراب أشد من اضطراب أخيها. ولما كانت قد وعت بنفسها نتائج ذلك الوباء المعدي ، وانها بذاتها قد تركت مباهج بابل وعظمتها من أجل ملك اسقوثيا ، وأن النساء دائمًا يغضضن عن هذه الحماقات التي هي من أثر الحب ، أحست بكرب فورموزانتا وغمها ، فتمنت لها رحلة سعيدة ، ووعدتها بأن تدافع عنها لدى أخيها إذا أسعدها الحظ برؤيته مرة ثانية.

الفصل السادس

فورموزانتا تتابع رحلتها

غادرت أميرة بابل والعنقاء إسقوثيا ، وسرعان ما وصلا امبراطورية السمريين ، وتدعى الآن روسيا . وهي في الواقع دولة يتلهدد سكانها عن إسقوثيا ، إلا أن رفعتها تفوق هذه اتساعاً وامتداداً .

دخلت الأميرة مدينة عظيمة بعد سفر أيام قلائل ، تلك المدينة التي عمل دائماً على ترقيتها وتحضيرها فيما بعد ذلك أميرها المالك . ووقع في ذلك الحين أن كانت الامبراطورة تتجول في ممتلكاتها عند الحدود الاوربية الاسيوية ، تتفقد أحوال رعيتها بنفسها ، وتعالج منازعاتهم ومشاحناتهم فتسويها بحكمتها وعدل أحكامها .

حينما علم حاكم المدينة الاعلى بقدوم السيدة البابلية والعنقاء ، لم يتوان لحظة واحدة في أن يقوم لها بكل ما كان في مراسم دولته من وسائل التعريف والتكريم ، متأكداً أن الامبراطورة ، وهي أكثر أباطرة العالم كرماً وأدباً ، ستنشرح وتبتهج عندما تعلم ، أنه استقبل بالعظمة والإكبار سيدة شريفة مبجلة ، ما كانت لتستقبل بأقل من ذلك لو أن الإمبراطورة نفسها كانت في المدينة .

أضيفت الأميرة في القصر وأقيمت لها واجبات الضيافة بكثير من الأبهة والبهاء ، وكان الحاكم السمري وهو فيلسوف طبيعي عظيم ، ينتهز الفرص التي تأوي فيها الأميرة للراحة ، ليحادث العنقاء ويلتي نفسه بمناقشته . أخبره العنقاء أنه زار بلاد السمريين خلال إحدى رحلاته . ثم قال : كيف تحدث هذه التغييرات في مثل هذا الوقت القصير ؟ فلما كنت هنا منذ ثلاثمئة سنة ، لم ألحظ غير الطبيعة الجامدة بكل ما سيها ، اما الآن فأدرك أن هنا فناً وصناعة ورقة وعظمة .

قال السمري : « بدأ هذا الإنقلاب الضخم رجل واحد ، والآن توجهه الى طريق الكمال امرأة واحدة ، هي سيدة تعظم في تشريعاتها إيزيس المصرية ، أو سيريس اليونانية . وكان معظم المشترعين للأسف وسوء الحظ من ضعيفي الإدراك خاملي العقول ، فكانوا يجنحون الى الاستبداد ، فيصبح فهمهم وإدراكهم للممالك التي يحكمونها متعذراً عسيراً .

فقد كان ينظر كل منهم الى جنسه على أنهم البشر المختارون على وجه الارض ، وأن واجبهم أن يناصبوا الآخرين العداء . كوّنوا معاهد ، وأدخلوا عادات ، وأسسوا معتقدات استأثروا بها لأنفسهم . إن المصريين الذين بلغت شهرتهم ذلك القدر البالغ من العظمة بتلك الأكوام المتراكمة من الأحجار المدعوة الاهرام ، قد حقروا أنفسهم بخرافاتهم الدينية الهمجية ، فاحتقروا كل الأمم الأخرى على أنهم أنجاس ملوّثون . ورفضوا أي نوع من الاحتكاك بهم او معاشرتهم ، وليس من المصريين ، غير أولئك المتصلين بالبلاط والذين هم يعلمون بأخلاقهم عن حماقات الدهماء مَنْ يقبل ان يأكل في صحن استعمله اجنبي . وكذلك كان كهنتهم قساة سفهاء وافعالهم مناقضة للعقل . إذ أنه من الأفضل والحالة هذه ألّا توجد قوانين بالمرة ، وان تتبع تلك الإحساسات التي تبثها في قلوبنا الطبيعية من خير وشر ، على أن تخضع الرعية لمثل هذه النظامات الجائرة ».

« أما امبراطورتنا فاتخذت نظاماً يخالف ذلك النظام تماماً ، واعتبرت انه لزام على كل ممتلكاتها التي تتوحد مع جميع الأصقاع الواقعة بين المدارين ، وعلى أن يكون اتباع هذه القواعد مع جميع الذين يقطنون تلك الأصقاع ، لزام وفرض . وكان أول قانون ، بل القانون الجوهري من قوانينها ، هو التسمح الشامل مع جميع الأديان وازال العقاب الصارم جزاء أي خطأ يرتكب . وأدركت بعبقريتها النافذة أنه مهما اختلفت أساليب العبادة الدينية فالفضيلة واحدة في كل مكان . وبهذا المبدأ وحّدت بين شعوبها وبين جميع أمم الأرض ، ولن يمضي وقت طويل حتى يعتبر المصريين أن الاسكندناويين والصينيين اخوانهم في البشرية . ولم تكتف بهذا بل صممت أن تنشىء هذا التسمح العظيم الذي هو أهم رباط الصلات الاجتماعية ، مع من يجاورها من الامم ، فأطلق عليها لهذا لقب « أم الشعب » ولو انها استمرت على هذا ، إذن لأضفى عليها لقب المنعمة على الجنس البشري » .

« كان الرجال قبل هذا الزمان إذا آنسوا في أنفسهم قوة وجبروتاً ، هبطوا بقبائلهم وجيوشهم على الممالك الأخرى ، يخربونها وينهبون ما فيها ويشربون من دماء الأطفال الذين هم في الواقع منحدرون وراثة من آبائهم وأجدادهم . ومما يؤسف له شديد الأسف ان هؤلاء القتلة كانوا يلقبون أبطالاً ، كما تعتبر سرقاتهم من الأعمال العظيمة الباهرة . لكن انتحت امبراطورتنا الى العظمة وسيلة تخالف تلك الوسائل تماماً ، فأرسلت بجيوشها لكي تكون رسل السلام ، لا لتحول بين الرجال وبين التخريب والهدم ، بل لتجبرهم على أن يحب كل منهم صاحبه وان يكون عوناً له . وكان شعارها دائماً نشر لواء الأمن والاطمئنان العام » .

فتن العنقاء بكل ما سمع من هذا الرجل النبيل ، فقال إنه بالرغم من أنه عاش في هذه

الدنيا مئة وعشرين ألف سنة وستة أشهر ، لم يرَ هذا مثيلاً . ثم استنبأ بعد ذلك عن صديقه أمازان واستفسر عن اخباره ، فروى عنه المصريون أخباراً تشابه تلك التي سمعتها الأميرة من الصينيين والاسقوتيين ، فقد كانت خطة أمازان الدائمة أن يفر من أي بلاط يزوره في اللحظة التي يبدو على أية سيدة أنها شاهدته ورغبت في أن تأتلف به . فأخبر العنقاء فورموزانتا في الحال بهذا المثال الحي من اخلاص أمازان ؛ وهو اخلاص زاد من دهشته ، إذ انه لم يتصور أن أميرته تمتعت به أصلاً .

توجه أمازان الى اسكندناوه ، حيث مرَّ من مناظر لا زالت تثير في نفسه الدهشة والعجب . شاهد في تلك المملكة ، الحرية والملكية تعيشان جنباً الى جنب ، وتلك حال لا يخالها تشاكل ما عليه الممالك الأخرى ، فهناك يشارك فلاحو الأرض ، النبلاء وكبار الأعيان في التشريع . لكن مما زاد في دهشته أنه رأى في مكان آخر ما يفوق هذا غرابةً وبُعداً عن كل مألوف : أمير تلحظ فيه الشباب الفذ والعدل والاستقامة ، وقد اكتسب سلطته الملكية بتقربه الى شعبه والتوثيق لذلك بكل طريق مستطاع .

ثم إنه شاهد خلال رحلته فيلسوفاً على عرش سرماتيا ، كان الأجدر به أن يسمى ملك الفوضى ، لانه كان يرأس مئة ألف من صغار الملوك . كان صوت أحدهم يكفي بأن يلغي ما سمع عليه الجميع . إن الصعوبة التي لاقاها إيلوس في أن يلزم الرياح العاتية حدودها الطبيعية ، لم تكن لتقرن بالصعوبة التي يلاقيها هذا الملك في التوفيق بين نفوس رعيته الشرهة المتنافرة . وكان إيلوس هذا ربان سفينة ماهر محاطة بأعاصير أبدية ، إلا إنها لم تغرق ، لانه كان ربّاناً ماهراً .

إخترق أمازان تلك الممالك المتباينة المختلفة تمام الاختلاف عن بلاده ، إلا أنه أعرض عن كل ما أظهر النساء نحوه من الحب والتودد ، بالرغم من القلق الدائم الذي كان يساور نفسه من معاملة فورموزانتا لملك مصر ، مصمماً أن يضع لها مثالاً رائعاً للاخلاص الفريد .

أمّا الأميرة فكانت تتبعه دائماً عن قرب ، ونادراً ما تخلفت عن تأثره يوماً واحداً أو يومين ، ذلك من غير أن يكل أحدهما أو يفقد الآخر دقيقة واحدة في اقتفاء أثر صاحبه .

جاب أمازان قارة المانيا الفسيحة ، حيث لحظ هناك وقد ملك عليه العجب كل شعوره وإحساساته ، ذلك التقدم الذي أنتجه العقل والفلسفة في الغرب ، حتى أنّ أمراءها كانوا فطنين أذكياء حتى لقد أصبحوا قادة الفكر والحرية . ولم يعتمدوا في تعليمهم على أناس يرغبون في أن يخدعوهم ، أو هم بأنفسهم مخدوعين ، وبهذه الوسيلة شبوا على معرفة الآداب البشرية واحتقار الخرافات .

فقد أبعدوا عن دوطهم تلك المادة التي لا معنى لها ، والتي أنهكت وأفقرت البلاد الجنوبية ، والتي كان من مقتضاها أن يدفن في سجون كبيرة مظلمة ، عدد من الأناس لا نهاية له من كلا الجنسين ، وقد فصلوا عن بعضهم البعض فصلاً أبديًا ، وأقسموا على أن لا يتواصلوا بصورة ما . وساعد هذا الجنون على تخريب الأرض وتحويلها بلقعاً يباباً بطريقة تقصر عنها أشد الحروب وأمثالها .

وعلى العكس من تلك النظامات الهمجية ، المنافية لقوانين الطبيعة وتقدم المجتمع أصبح أمراء الغرب هم المحسنون على أبناء جلدتهم فأبطلوا شروراً مضرة ، هدامة منبوذة ، وعلى الجملة أقدم الرجال في تلك الأصقاع الفسيحة على تحكيم عقولهم ، بينما لا تزال العقيدة الراسخة بين الناس في كل مكان آخر ، أنهم لن يحكموا إلاّ بالقياس على جهلهم .

الفصل السابع

زيارة أمازان للبلد الأبيض

وصل أمازان بالتاليا بعد جولته في ألمانيا ، ولقد خفف كثيراً من هواجسه الدائمة ما لحقه من شبه واهن بين أهليها ، ومواطنيه الكنجيين السعداء . لحظ هناك الأمن والحرية والمساواة مع التسمح الديني . أمّا نساؤها فمن اللواتي لا يبالين الحب ، فلم تبد له أيّ شيئاً من العواطف ، ذلك الشيء الذي لم يصادفه من قبل ، بيد أن الحقيقة ، أنه لو أظهر ميلاً للتعرف بهنّ لما تمنعن على الرغم أنه لم يكن ليشعر نحوهنّ بأدنى ميل . فإن أفكاره كانت بعيدة عن غزو قلوبهنّ ، وكادت تلحق به فورموزانتا في هذه الأمة البليدة الجامدة ، لو لم يرحل قبل وصولها بلحظات .

سمع أمازان البتاليين يتحدثون جزيرة ما تدعى البلد الأبيض ، فدفعه حب الاستطلاع أن يبحر وخرافيته على سفينة اليها ، فأنبأتهم الى هناك ريح شرقية لطيفة في ساعات قليلة ، وقد فاقت هذه البلاد شهرة مدنية صور والأطلنطيس .

تبعته فورموزانتا الفاتنة الى ضفاف الفولجا والفستولا والألب والويزر كما لو كانت تقتفي الأثر ، ولم تتأخر عن لحاقه يوماً أو يومين ، حتى وصلت سريعاً الى مصب الرين حيث يلتقي بالمحيط الألماني .

وهناك علمت أن حبيبها قد أبحر تواً الى البلد الأبيض ، فتذكرت أنها رأت السفينة التي أبحر بها فلم تتمالك نفسها وأرسلت صيحات الفرح التي أثارت كثيراً من دهشة النساء البتاليات ، غير متصورات أن يكون هناك صغير مستحقاً لمثل هذا الطرب العظيم . كذلك شاهدن العنقاء ، لكن بقليل من الانتباه ، حتى قدرن عن ريبة ، أنه لا يباع من القيمة مبلغ ربح بطهم وطيورهم المائية الأخرى .

واستأجرت أميرة بابل سفينتين تنقلانها وكل حاشيتها الى تلك الجزيرة السعيدة التي سوف تحوي بعد قليل ، موضع رغباتها الوحيد ، وجوهر حياتها وإله حبها .

هبت ريح عاتية من الغرب في اللحظة التي رسى فيها امازان المخلص على ساحل البلد الأبيض الذي يكتنفه البحر ، كما عاقت سفن الأميرة البابلية في اللحظة التي تأهبت فيها للابحار ،

فاستولى عليها حزن عميق ، فتوجهت الى غرفتها وعزمت على البقاء هناك حتى تهدأ الرياح ، إلا انها استمرت على عنفها ثمانية ايام متوالية . وقد استخدمت الاميرة خلالها وصيفتها إرلا في قراءة قصص خرافية لتسليتها ، وهذه القصص لم يكتبها الباديون في الواقع، لكنهم لما انهم ذوي صلة تجارية بالعالم ، فقد تاجروا كذلك في العقل كما يتاجرون في سلع البلاد الاخرى، واشترت الأميرة من بائع الكتب « مارك ميغيل داي » كل الروايات التي كتبها الاوزونيّون والولشيون والتي نصت الحكمة بأن يحظر بيعها لتلك الامم حرصاً على إغناء جيرانهم البنائيين وتوقعت الاميرة ان تجد في هذه الروايات شيئاً من الشبه بمخاطراتها ، فيخفف ذلك بعض همومها وأشجانها . فكانت وصيفة الشرف تقرأ والفتاة تنتقد وتبدي ملاحظاته ، ولما لم تجد الاميرة أقل شبه بين ما جاء في رواية « فتاة الريف السعيدة » او رواية « موذ » او رواية « نانسية » وبين مغامراتها ، كانت تستوقف القارىء في كل لحظة مستفسرة عن حال الريح .

الفصل الثامن

أمازان يغادر البلد الأبيض

ركب أمازان عربته يجرها خراتيته الست ميمماً شطر عاصمة البلد الأبيض وقد اتجهت كل افكاره خلال ذلك الى عروزته الاميرة ، بيد انه حافظ على مسافة زريبة عربة قد إنطمرت في حفرة صغيرة ، وراح الخدم يطلبون النجدة من كل مكان بينما جلس صاحب العربة في مقعده يدخن غليونه بهدوء عظيم من غير ان يظهر عليه اي ملل او ضجر ، وكان اسمه لورد « وَتْ ــ ذِنْ » في اللغة التي ترجمت منها هذه المذكرات وترجمته « ثم ماذا » .

فزع أمازان لمساعدته ، فأعاد العربة بمفرده الى وضعها الصحيح ، ذلك بأن قوته متفوقة بقوة بقية الرجال ، كانت فائقة فذة . لم يلق لورد « وَتْ ــ ذِنْ » اليه بالاً ، غير انه قال « رجل قوي الاصلاب وحق الرب » وعندئذ حضر بعض الجيران فلما لم يجدوا داعٍ لحضورهم طغى عليهم انفعال شديد فأخذوا يسبون الاجنبي ودعوه بالكلب الغريب ، وهددوه بالمبارزة والملاكمة .

أمسك أمازان في كل يد بأربعة منهم ودفعهم عنه عشرون خطوة ، فلما رأى الآخرون ذلك ، رفعوا قبعاتهم وانحنوا أمامه باحترام عظيم ، وطلبوا منه أن يقبل تكريمهم له بنخب يشربه معهم . فكلفهم ذلك الاحتفاء مبلغاً من المال لم يدر بخلدهم مثله . وحينذاك نظر اليه لورد « وث ـــ ذن » بعين الاعتبار والاجلال ودعاه لتناول الغداء معه في منزله الريفي الذي يبعد نحواً من ثلاثة أميال ، فلما قبلت دعوته ، ركب مع أمازان عربته تاركاً العربة المحطمة

وبعد ربع ساعة نظر لورد « وَتْ ـــ ذِنْ » الى أمازان وقال « كيف حالك (وهي عبارة في الواقع لا تنقل للذهن أي معنى) لديك ستة خراتيت بديعة » . ثم استمر يدخن غليونه.

أخبره الرحالة بأن خراتيته كانوا دائماً في خدمته ، وقد أحضرهم من بلاد الكنجيين ، وبذلك اختلق سبباً ليطلعه على حقيقة أمره مع اميرة بابل ، وقبلتها المشؤومة لفرعون مصر فلم يحر الآخر أي جواب ، غير مبال إن كان هناك في العالم مثل هؤلاء ، كملك مصر وأميرة بابل.

صمت اللورد ربع ساعة أخرى ثم سأل صاحبه مرة ثانية « كيف حالك » وهل عند الكنجيين أي نوع من الشواء الجيد؟

رد أمازاني بأدبه المعتاد قائلاً إنهم لا يأكلون إخوانهم على شطآن الكنج . ثم شرح له ذلك المذهب الذي سمي بعد ذلك بقرون كثيرة بالفلسفة الفيثاغورية ، وأما اللورد فأخذه النوم في تلك الأثناء ولم يستيقظ إلاّ وهو في منزله.

وكان متزوجاً من فتاة صغيرة جميلة ، أضفت الطبيعة عليها نقصاً فيها من الحيوية ودقة الاحساس ، بقدر ما كان في زوجها من القبح والبغضاء . وقد حضر في ذلك اليوم لتناول الغداء معها بعض الأسياد الذين نلحظ فيهم اخلاقاً وطباعاً متباينة ، ذلك بأن تلك البلاد ظلت في حكم الأجانب دائماً،فأدخلت الاسر التي وفدت مع الأمراء الغزاة عاداتها وتقاليدها المختلفة ، فكان في هذه الجماعة فئة لهم مشارب مستحبة ، وأخرى فائقة العبقرية ، وقلائل استعمقوا في الدرس .

ولم يكن لسيدة المنزل شيئاً من ذلك التكلف الثقيل والتواضع المصطنع الذي كان وصمة في جبين نساء البلاد ، فانها لم تكن لتغني بنظرة احتقار او صمت متكلف ، ضعف خيالها وافكارها ، او بتلك الحيرة الوضيعة عندما تفتقد المرأة شيئاً تحدث فيه . فلم تكن هناك من إمرأة مثلها تستميل السمع بحديثها .

قابلت أمازاني بكياسة وادب كانا وفق طبيعتها تماماً ، فجمال هذا الاجنبي ، والموازنة الاختيارية التي لم تستطع الاقلاع عنها بينه وبين زوجها القبيح ، لم تزد من سعادتها او قناعتها ورضاها شيئاً .

وعند الطعام ، أجلست السيدة أمازاني الى جانبها واخذت تقدم اليه صنوفاً من «المبار» فأخبرها بأن الكنجيين لا يتغذون مطلقاً بشيء تأتي من الأطعمة هبة الحياة السماوية . وكانت حوادث حياته الاولى واحوال الكنجيين وتقدم الفنون والدين موضوع المحادثة العلمية المستطاب طوال وقت الطعام الذي استمر حتى المساء ، حيث كان لورد « وت — فذ » لا يفعل شيئاً اللهمّ إلاّ جذب الزجاجة اليه وطلب القهوة .

بعد الغداء ، والسيدة تصب لهم الشاي ، وما زالت تمتع عينيها بالنظر الى الأجنبي ، طرق حديثاً طويلاً مع أحد أعضاء البرلمان ، وكلّ يعلم انه حتى في ذلك الحين كان هناك برلمان يدعى « ويتناجنموت » او جمعية العقلاء ، واستفهم امازاني من المعاهد والقوانين والعادات والآداب وفوائد الجند والفنون التي ظفرت بالبلاد الى ذلك القدر البالغ من العظمة ، فردّ عليه عضو البرلمان قائلاً :

« إننا ظللنا عراة لوقت طويل برغم ان إقليمنا ليس حاراً ، كذلك استعبدنا اناس

حضروا من بلاد « زحل » القديمة التي يرويها التيه ،الا ان الاذى الذي ألحقه بعضنا ببعض ، فاق كثيراً كل ما قاسيناه من غزاتنا الاولين .

إنّ عصور التهتك والرذيلة عقّبت عليها عصور من الهمجية والاضطراب . إن في بلادنا من الاضطراب والقلق ما يفوق اضطراب ذلك المحيط الذي يكتنفنا ، فقد ضرجتها وخضبتها بالدماء خلافاتنا الحزبية ، وسقط كثير من الرؤوس المتوجة بطريقة قاسية ، كما قضى أكثر من مئة أمير من اصحاب الدم الملكي حياتهم على المقصلة ، بينما كانت تنتزع قلوب اتباعهم من صدورهم وتلقى في وجوههم ، وعلى الجملة فإنه من اختصاص الجلاد ان يكتب تاريخ جزيرتنا نظراً لان هذه الشخصية هي التي فصلت في كل قضايانا العامة .

ومن اجل ان تكمل تلك الاهوال ، لم يمض غير قليل حتى ظهر رجال يلبسون صدوراً سوداً . وآخرون يلبسون قمصاناً بيضاً فوق ارديتهم ، فاستبدوا واحتموا ، غير متسمحين ، ونجحوا في إشراك الامة في جنونهم ، ومن ثمّ اقتسمت بلادنا حزبين : القتلة والمقتولين ، والسفاحين والمفتوحة دماؤهم ، والشهاب والصيد . كل ذلك باسم الله وفي سبيل الوصول الى الله .

من ذا الذي كان يتصور ان تنبت من خلال تلك الهوة الفظيعة وعماء الانقسام والنزاع والقسوة ، والجهل والتعصب ، حكومة يحق ان يقال الآن إنها أبرع الحكومات في العالم وأكملها . ذلك ما حدث . فعلى هذه الامة الطريبة التجارية الذكية المستنيرة ، يقوم امير ذو ثراء وشرف قادر كل القدرة على الخير ، عاجز كل العجز عن الشر ، ذلك بأن النبلاء من ناحية وممثلي الشعب من أخرى ، يشاركونه التشريع .

وقد رأينا انه بحكم قدرٍ مُقَدَّرٍ من الاحداث ، والحروب الاهلية والاستبداد والشقاء ، قد خربت البلاد عند ما جنح ملوكنا الى التفرد بالسلطة الاختيارية الاستبدادية ، بقدر ما ساد بيننا الامن والثراء والسعادة الكلية عند ما اكتفى الامير بسلطة محدودة . واختل النظام عند ما كنا نتشاحن ونتناقش في الاشياء والاسرار الخفية ، لكن تلك الفوضى قد انتهت عندما ساد الينا جزء من الصواب جعلنا نحتقر هذه الاشياء . والآن تنشر اساطيلنا الظافرة أعلامنا على جميع البحار ، وأمّنت القوانين أرواحنا وأموالنا ، فلا يمكن لقاضٍ ما ان يفسرها بطريقة استبدادية ، ولا يجوز له ان يتخذ قراراً بدون الاسباب الداعية له ، وقد نعاقب قاضياً كما لو انه كان قاتلاً ، اذا هو حكم على شخص بالاعدام من غير إعلان القرائن والملابسات التي تثبت إدانته والقانون الذي أصدر حكمه بمقتضاه .

كنا في الواقع على الدوام منقسمين حزبين ، يكتب كل منهما ضد الآخر ويدس له ،

إلاّ أنهما يتحدان إذا دعت الضرورة الى التسلح دفاعاً عن الوطن او الحرية ، ولن يسمح أيهما بأي تعدٍّ على أمانة القوانين المقدسة . فهما في تكارمهما أشبه بالحبيبين الغيورين اللذين يتشقان نفس المرآة وفي نفس كل منهما الحسد والبغض نحو الآخر .

ومن منابع عبقريتنا السامية التي بها أوضحنا ودعمنا حقوق الانسان الطبيعية ، ذهبنا بالعلوم الى ذروة العلا التي يمكن ان يبلغ اليها الانسان . فالمصريون الذين تظاهروا بنبوغهم في الميكانيكا ، والهنديون الذين يستقدون بأنهم من عظام الفلاسفة ، والبابليون الذين يفتخرون بأنهم رصدوا النجوم على تمادي ثلاثين الفاً واربعمائة سنة ، والاغريقيون الذين كتبوا كثيراً وقالوا قليلاً ، كل أولئك لا يعرفون في الحقيقة شيئاً إذا قرنوا بأضعف علمائنا الذين درسوا اكتشافات اساتذتنا . وقد استنبطنا من أسرار الطبيعة في خلال مئة سنة ، ما لم يستطع النوع البشري الحصول على مثله في مئة عصر .

هذا بلاغ كامل عن حالتنا الحاضرة ، فلم أخف عنك لا الحسن ولا القبيح ، لا معراتنا ولا أمجادنا ، ولم أبالغ في شيء .

شعر أمازان من هذا الحديث رغبة ملحة في ان يتفقه في تلك العلوم السامية التي تكلم عنها صديقه . ولولا هيامه بأميرة بابل ، وواجبه نحو أمه التي هجرها ، وحبه لوطنه ، تلك الأشياء التي تملكت كل قلبه السقيم ، لاصبح سروره عظيماً لو انه مكث بقية حياته في البلد الابيض . ولكن قبلة ملك مصر المشؤومة لاميرته لم تكن لتزايل في عقله فراغاً يؤهل به لدرس العلوم العويصة المبهمة : قال « أعترف بأني قطعت على نفسي عهداً وثيقاً بأن أجوب العالم ، وأهرب من نفسي » .

تكلم أمازان بأسلوب لطيف ، وكان صوته ساحراً فتاناً ، كما كان كل سلوكه نبيلاً يستميل الانتباه ، حتى ان سيدة المنزل لم تتمكن من مقاومة رغبتها في أن تسعد منه بحديث خاص بدورها . فأرسلت إليه رسالة غرام صغيرة تعبر بأجمل المعاني عن رغبتها تلك ، فكان لامازان من الشجاعة ما مكنه من مقاومة اغراء الجنس اللطيف مرة أخرى ، واتباعاً لعادته ، كتب للسيدة رداً كله الاحترام ، مبيناً عن قدسية قسمه ، والعهد الوثيق الذي أخذه على نفسه ليعلم اميرة بابل كيف تقهر عواطفها كما يقهر هو عواطفه . وبعد ذلك جهز خراتيته ورحل الى باتافيا تاركاً الجماعة في انذهال وتعجب من أمره ، والسيدة في دهشة عميقة . ومن فرط اضطرابها سقط منها خطاب أمازان ، فقرأه لورد « وت ذن » في الصباح .

قال هازاً كتفيه : « ما أثقل وأسخف ما في هذا » ثم بادر بالخروج لصيد الثعلب مستصحباً جماعة من جيرانه السكارى .

كان أمازان قد ابحر ومعه رسماً جغرافياً أهداه اليه الرجل المثقف الذي تحدث اليه في منزل لورد «وت ـ ذن» وتملكته دهشة عظيمة لما رأى أكبر جزء من الارض مرسوماً على قطعة صغيرة من الورق .

حلقت عيناه وجالت خيالاته في هذا الرسم الصغير ، فرأى الرين ، والدانوب والب التيرول وتمينها بأسمائها المختلفة ، وكل البلاد التي كان عليه أن يجتازها ، وبالأخص حدق في رسم بلاد الكنجيين وبابل التي رأى فيها عروزته الأميرة ، كما حدق في البصرة ، التي قبلت الأميرة فيها ملك مصر تلك القبلة الشنعاء ، فبكى وانحدر الدمع من عينيه لتلك الذكرى التعيسة ، وقد سلم بما قال رجال البلد الأبيض ، أولئك الذين أعدوه العالم مصغراً ، بعد ان حقق فعلاً أن سكان التاميز كانوا أفضل الف مرة من أولاء الذين يقطنون ضفاف النيل او الفرات او الكنج .

الفصل التاسع

مغامرة تعيسة في بلاد الغال

ظل أمازان على اخلاصه المتين لأميرة بابل طوال رحلته ، وخلال كل المقاطعات التي جابها ، ولو أنه كان دائم الحقد على فرعون مصر . وصل هذا المثل الحي على ثبات العزم الى عاصمة بلاد الغال ، وكانت المدينة كغيرها تخضع دواليك للهمجية والحمق والجهل والبؤس ، وكان أول اسم أطلق عليها هو « قذر ووحل » ثم صرف عليهـا بعد ذلك اسم إزيس لأن عبادة إزيس كانت قد وصلت الى هناك . وتألف أول عنصر هيوح لها من جماعة من البحارة وقد مكثت أمداً طويلاً واوحة تحت العبودية خاضعة لفتك أبطال الجبال السبعة . وبعد ذلك بعصور استوطن رقعتها الصغيرة أبطال من اللصوص هبطوا عليها من أقاصي ضفاف الرين . وأمـا الزمن الذي من شأنه أن يغير كل شيء ، فقد استحدث منها مدينة نصفها جميل بهي والآخر مضحك همجي بعض الشيء — وكذلك كان طابع قاطنيها — وكان يقطن تلك المدينـة ما يربو على مئة الف نسمة على الأقل ، انصرفوا جميعاً الى اللهو والتشاحن ، على أن هؤلاء المتعطلين هم الذين كانوا يحكمون أذواقهم في الفنون التي يبتدعها غيرهم كما أنهم كانوا يجهلون كل ما يحدث في البلاط على الرغم من أنهم لا يبعدون عنه أكثر من أربعة أميال كانت عندهم بمثابة ستة آلاف ميل على الأقل . فقد كان للحفلات السارة والتفاهات والمرح ، الاعتبار

الفرد في حياتهم، حتى لقد أصبحوا يضحكون كالأطفال الذين تستحضروا عليهم بالدمى حتى يمتنع بكاؤهم. ولو أنهم تأملوا في الفظائع التي خضّبت بالدم منذ قرنين مضيا أو ذكروا تلك العصور المرعبة التي قتل فيها نصف الأمة النصف الآخر استجابة لحماقات الجدل والسفسطة، قالوا في بساطة إن هذا لم يكن عملاً محكماً؛ ومن ثمّ اندفعوا توّاً مجددين ألعابهم وضحكاتهم مرددين الأنغام.

وبقدر ما كان المتعطلون متأدبين دمثين لطفاء، لوحظت فروق كبيرة هائلة بينهم وبين أولئك الذين شغلتهم الأعمال.

كان من بين رجال الأعمال، أو كما دمغهم البعض، عصبة من الجامدين ذوي المزاج السوداوي، أخلاقهم مزيج من السخافة واللؤم، ويكفي مرآهم أن يشيع البؤس والشقاء، ولو أنهم أولوا شيئاً من السلطان، إذن لقلبوا العالم رأساً على عقب. إلا أن أمة المتعطلين استطاعت بالغناء وبالرقص أن تجبرهم على الانزواء في كهوفهم المظلمة كما تسوق الطيور المغردة تلك الخفافيش الناعقة الى جحورها وخرائبها.

كان حفظة التقاليد المعيبة القديمة، تلك التي صرخت منها الطبيعة فزعة مروعة، فئة من أصحاب الأملاك، لم يأبهوا بشيء اللهمّ إلا مأثوراتهم التي أكلها الدود. فإنهم إذا ما استكشفوا عادة حمقاء أو مكروهة، اتخذوا منها قانوناً مقدساً. ومن هذا العرف الخبيث الذي حدّ من جرأتهم على التفكير بأنفسهم، صعدوا الى استخراج معرفتهم من حطام تلك الأيام التي لم يكن يتفكر فيها من أحد، فكان ذلك سبباً في أن تعيش بقايا من خلائق عفنة في عاصمة اللهو والسرور. ومن ثمّ لم يكن هناك أي تناسب بين الجرائم والعقوبات. فكان ينزل بالمتهم ما يوازي ألف ميتة، لحمله على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها.

وكان الشاب يعاقب على الطيش وتجاوز المألوف، بنفس القسوة التي يعاقب بها القاتل العادي أو قاتل الأب. فاحتج المتعطلون بشدة على هذه القيود، غير أنهم في اليوم التالي لم يفكروا في ذلك مطلقاً، بل أخذوا يفكرون بإخلاص في أُلهيات جديدة.

شهد هؤلاء الناس جيلاً بأكمله يتوارى، بلغت فيه الفنون درجة من الكمال فاقت كثيراً أكبر الآمال المتوثبة النارية المزاج. وقد عاد الأجانب الى هناك كما كان الأمر ببابل، ليفتتنوا بالآثار الهندسية العظيمة وأعاجيب فلاحة البساتين، والمجهود العظيم الذي بذل في النحت والرسم، كما فتنتهم قطع موسيقية كانت تصل الى القلب من غير أن تخدش الآذان.

ولو أننا تحدثنا عن الشعر الحقيقي، ذلك الشعر المؤتلف الطبيعي، الذي يخاطب القلب تماماً كما يخاطب العقل، أمكن أن نقول بأنه لم يكن معروفاً لدى هذه الأمة قبل هذا العصر

الصيد. وقد كشفت أنواع جديدة من البلاغة عن مفاتن عظيمة هائلة وذخرت المسارح على الأخص بالتحف التي لم تدانها أمة أخرى ، وعلى الجملة انتشر الذوق السليم في كل مهنة حتى لقد ظهر بين الدروديين كتّاب عظام .

إنّ كثيراً من أشجار الغار التي فرّعت وامتدت الى السماء ، سرعان ما ذوت في أرض مُجهدة فلم يبق منها غير عدد قليل ، حال لون أوراقها وتولى خضرتها الاصفرار . على أن هذا الفساد أو الانحلال الذي انتابها ، لم يكن له من سبب اللهمّ إلاّ سهولة استنباتها ، والجهل الذي حال دون إنتاج الطيبات وامتلاء المرتزقين واكتظاظهم بما أفسدهم ، والجنوح الى مالا يغني من جوع . كما أنّ الخيلاء والغرور قد حبا من الفنون ما أعاد عصور الهمجيّة . وكانت هذه الخيلاء ، التي اضطهدت الرجال ذوي العبقرية والمزايا الحقيقية ، سبباً في أن يخرجوا من أوطانهم مشردين . إنّ الشفافير المؤذية ، قد طردت النحل المنتج .

قلما بقي من الفنون الطيبة أثر ، وقلما عاش شيء من العبقرية الصحيحة . أمّا الترهات العقلية فحصرت في التفكير فيما هو صواب أم خطأ مقيساً ذلك كله على تصورات عصر بائد . وفسد الأمر ، حتى تطاول الطلاء الذي يطلي لوحة الاعلان فنبرى ينقد أعمال كبار المصورين ، والمأفون الذي يقف لينشف المداد السائل أمام رئيس يرقم في أوراقه ، نتاج أعاظم الكتّاب .

إنّ الجهل وفساد الذوق لها أبداً طلاّؤها . فالشيء الواحد يتكرّر في مئة مجلد تحت عناوين مختلفة . وأصبح كل عمل أدبي إمّا قاموساً وإمّا نشرة .

ولقد اعتادت صحيفة « درودية » أن تنشر مرتين في كل أسبوع وقائع أمة غير معروفة فتنتها الشياطين ، وتتكلم في معجزات سماوية وقعت في أكواخ يسكنها شحاذون من الرجال والنساء . وظهر من متبوذي الدروديين من اكتمل بالسواد ، وفيهم استعداد لأن يعوّروا غيظاً أو جوعاً ، ومصرّ يصرخون من آلامهم في مئات من المكتوبات المختلفة ، شاكين من أنهم لم يصبحوا بعد قادرين على مخادعة النوع البشري ، لأن هذا الامتياز قد أضفي على بعض من الماعيز حلات بأثواب رمادية . كما أن بعض كبرائهم قد استخدموا في تحضير قذوف امتازت بالنيل من الأعراض .

كان أمازان على تمام الجهل بهذا ، ولو أنه أخبر به ، لما نظر إليه إلاّ بقليل من الانتباه ، حيث لم يشغل كل أفكاره غير أميرة بابل ، وملك مصر وذلك العبد الوثيق الذي لا يمكن أن تنتهك له حرمة . وهو أن يحتقر كل ما يتقرّب إليه به النساء من أنواع التدلل والاغواء ، في أي مملكة يسوقه إليها اليأس .

كان الرعاع الجهلاء ، وقد فاق قصورهم كل حدود الطبيعة والعقل ، يحتشدون لوقت طويل

حول خزائنه.» أمّا النساء البيبات فكنّ يدفعنّ أبواب مخدعه عنوةً ليتأملن شخصه ».

أبدى أمازان بعض الرغبة في أن يزور البلاط ، لكن أخبره بعض المتطفلين الذين كانوا يذهبون الى هنالك من وقت لآخر، بأن هذه العادة أصبحت خارجة تماماً على آداب السلوك ، وأنّ الاحوال قد تغيرت تغيراً كبيراً ، وأنّ جميع الملاهي انحصرت في المدينة . ثم دعوه لتناول العشاء مع سيدة طبّقت فطنتها ومواهبها آفاق الاقاليم الاجنبية ، وقد زارت هذه السيدة كل البلاد التي جابها أمازان . وأمّا هذه السيدة فسرّت أمازان سروراً عظيماً كما اغتبط بالحفاوة التي لاقاها في منزلها حيث شهد حرية مكفولة بالوقار وسروراً بلا جلبة ، وسكوناً بلا غضاضة ، وفراهة بلا زهو . وفي اليوم التالي تناول غداءه مع جماعة أقل بهجة ، غير أنها كانت أكثر تعطشاً للهو ، وكلما زاد رضاه عن مضيفيه زوّدهم رضاه به . فوجد أن نفسه قد انحلت كالنباتات العطرية ، التي تذوب شيئاً فشيئاً عند درجة حرارة معتدلة ، فتنبعث منها الروائح الزكية .

وذهب معهم امازان بعد الغداء الى احدى أماكن اللهو العامة ، وكان فتاناً ساحراً يخلب الالباب ، إلاّ أنه كان منهياً رغم ذلك من الدروديين . ذلك بأنه كان يحجب عنهم معظم مستمعيهم ، وكان ذلك مثاراً لحقدهم وبغضهم . وأما العرض فكان مزيجاً من أشعار مستحبة الى أغانٍ جذّابة مشجية ، الى رقصات باهرة تعبر عن خلجات النفس وتكشف عن مفاتنها والى غير ذلك مما يخلب العينين خداعاً . ولم يكن هذا النوع من اللهو الذي كان يحوي كثيراً من المناظر والاشكال معروفاً إلاّ باسم أجنبي فكان يدعى بالاوبرا ، وهو إسم دلّ أوّلاً في لغة السمل على معاني العناية والاكتاب والانتاج والجهد والبذل . سحر هذا العرض أمازان وفتنه كما اجتذبته فتاة مغنية بصوتها وما كان يبدو عليها من دلال . فقدم له رفاقه تلك الفتاة العبقرية ، فأهداها ملء قبضته من نفيس الجوهر ، فكان من شدّة افتتانها وعظيم شكرها أن أبت أن تفارقه بقية يومها ، فتناول معها ومع رفاقها طعام العشاء وكان مستطاباً مستحبّاً ، فسلبته الخمر يقظته فثمل . . . . فما أوهن الطبع البشري !

وصلت أميرة بابل في تلك الاثناء ، ومعها إيرلا والعنقاء والمثني فارس كنحي ثمانين غرائبهم ، ومكثوا وقتاً غير قصير خارج أبواب المدينة قبل ان تفتح لهم ، وما إن وطأت أقدامهم أرض المدينة حتى سألت الأميرة ، هلاّ يزال أذكى وأجمل وأشجع وأوفى الرجال بالمدينة ؟ فانتهى الحرّاس على السور إلى أنها انما تعني أمازان ، فأرشدوها الى فندقه .

كم كان خفقان قلبها عظيماً ! ذلك الخفقان الذي هو دليل الحب . وغمر نفسها فرح يجل عنه الوصف ، لأنها سوف ترى مرّة أخرى في حبيبها مثال الثبات على العزم ، ولن

عنمها مانع من أن تدخل عليه حجرته ، فرأت الستائر مرفوعة وشاهدت أمازان القاتن نائماً وقد أنهكه الحر .

تلقاء ذلك عبرت فورموزانتا عن حزنها وخيبتها بصراخ عظيم دوت به أرجاء الفندق وأغمي عليها بين يدي إرلا . وحالما استعادت يقظتها خرجت من تلك الغرفة المقوتة يغمرها حزن عميق تخلله الغضب .

صرخت الأميرة الفاتنة وقد غمرها سيل من الدمع : إيه أيتها السماء العادلة ! عجباً يا أورمزد الجبار ! لمن ومن خانني تلك الخيانة ؟ أهكذا تمكن من أن يصد أميرات كثيرات ثم يهجرني لرفقة بعض اللاهين من أهل الغال ! لن أصبر على هذه الاهانة .

ثم قالت : لن أراه بعد اليوم ما دام ينبض لي عرق ، ولنرحل هذه اللحظة ولتجهز المركبات :

ناشدها العنقاء أن تبقى على الأقل حتى يستيقظ أمازان عسى أن يكلمه .

قالت الأميرة : أنه لا يستحق ذلك ، إنك لتثير غضبي وتتحداني بقسوة ، فرغماً عن أني التي أرغب في لومه واني أسعى الى التفاهم معه ، فإن كنت حقيقة تكن لي حباً ، فلا تضف هذا النعيم إلى ما لحقني من إهانة .

ما كان العنقاء أن يعصاها ، وهو يدين لها قبل كل شيء بحياته ، وحينئذ رحلت الأميرة بحاشيتها قالت إرلا : الى أين أنت ذاهبة ؟

أجابت الأميرة : لا أدري ، فسنتبع أول طريق يصادفنا ما دمت سأفر من أمازان الى الأبد . ثم إني راضية .

أما العنقاء وكان أحكم من فورموزانتا لأنه كان متجرداً من أية شهوة ، فأخذ يطيب نفسها وهم في الطريق وذلك بأسلوب عجيب جذاب قائلاً إنه من القسوة أن يعاقب إنسان بسبب خطأ ارتكبه غيره ، وأن أمازان ولا شك قدم لها دلائل تكفي لاثبات اخلاصه ووفائه ولهذا فمن الواجب عليها أن تغفر له لحظة واحدة نسي نفسه فيها وهو مع حورية فاتنة . كما أنه أدخل في روعها أن هذا هو الوقت الوحيد الذي تحتاج فيه الى عناية أورمزد ، وأن تتزود منه بالحب الدائم والفضيلة للمستقبل ليس إلا . وان الرغبة في التكفير عن خطئه بهذه الوسيلة سوف تجعله يتسامح بنفسه ، وأن هذا هو الطريق الوحيد الذي تزيد به من سعادتها ، وأن كثيراً من عظام الأميرات قد غضضن الطرف عن مثل هذه الأغلاط ، وأنه بعد كل هذا لا يوجد من سبب لذلك الحزن . وكان العنقاء ذا قدرة فائقة في فن الاغراء ، حتى أنه جعلها أميل الى الهدوء والاستسلام ، فبدأت تشعر بحزن عميق على تسرعها في الرحيل وخيل اليها

أن خراتيتها تجد في السير وتسرع ، لكنها لم تجرأ على العودة . وكان ما شجر من التضارب بين رغبتها في الصفح ورغبتها في اظهار غضبها ، وبين حبيبها وارضاء كبريائها ، عظيماً ، ومع ذلك تابعت خراتيتها السير واخترقت العالم وفقاً لنزوة والدها .

أخبر أمازان عند ما استيقظ بوصول الأميرة ، ثم رحلتها ثانية هي والعنقاء ، كما أخبر بالغضب والاضطراب الذي بدا عليها ، وانقسم بأنها لن تصفح عنه أبد الدهر .

قال أمازان : « اذن ، ليس من سبيل إلا أن أتبعها ، وأقتل نفسي عند قدميها » .

احتج رفاقه المرحين اللاهين على هذا القرار الخطير ، وقالوا بأنه يستحسن أن يبقى معهم قليلاً من شيء يضارع حياتهم السعيدة التي يقضونها بين رحاب الفنون والمسرات الدمثة اللطيفة ، معقبين على ذلك بأن كثيراً من الأجانب ، وحتى من الملوك ، من يفضلون هذه الراحة الفاتنة المستحبة للنفس على بلادهم وعروشهم . ثم ان عربته علاوة على ذلك بها عطب ويجري العمل بأخرى على أحدث طراز ، وان أفضل حائك في المدينة قد جهز له اثنى عشر كسوة تطابق آخر ما ابتدع من أساليب التهندم ، وأن أكثر النساء دلالاً وجمالاً وأعظمهن اعتباراً في الهيئة الاجتماعية واللاتي تعهد منازلهن أنق المناظر التمثيلية ، قد عينت كل منهن يوماً تقيم له فيه حفلاً يجمع بين المتعة والمسرة واللهو . وأما فتاة الأوبرا فكانت في تلك الأثناء تشرب « الشكولاتة » ضاحكة منشدة مرنية شطر أمازان الجميل بعجب وافتتان ، حتى لقد خيل اليه بأنها ليست بأحطم من إوزة حمقاء .

إن الاخلاص والولاء والحمية وأيضاً العظمة والشجاعة ، كانت أخص عناصر أخلاق هذا الأمير العظيم ، وقد روى لأصدقائه مجمل سياحاته وتعاساته التي ألمت به ، وأعلمهم بأنه من أبناء عمومة تلك الأميرة وأفضى اليهم بسر القبلة التي جادت بها على ملك مصر ، فقالوا بأنها خزعبلات صغيرة غالباً ما يتغاضى عنها بين الأقارب ، والا مرت حياة الانسان في صعوبة مستمرة .

غير أنه لا يمكن لشيء أن يزعزع ما صمم عليه من ملاحقة فورموزانتا . لكن لما كانت عربته على غير استعداد ، فانه أجبر على البقاء هناك ثلاثة أيام بين المتعطلين الذين ظلوا عاكفين على ملذاتهم . وأخيراً استأذن منهم ، مودعاً معانقاً ، مهدياً اليهم بعضاً من جواهره عظيمة القيمة ، موصياً اياهم بالسعي دائماً وراء تفاهاتهم المستمرة وسرورهم الدائم ، اذا كان ذلك يزيد من سعادتهم وحبورهم . ثم قال « إن الألمان هم رؤوس أوربا المفكرة ، وان رجال البلاد البيض نبغوا ليكونوا رجالاً بمعنى تلك الكلمة ، وأما من في بلاد الغال فأطفال ، وأنا أحب أن ألهو مع الأطفال » .

الفصل العاشر

أمازان وفورموزانتا يتفاهمان

لم يجد المرشدون أدنى صعوبة في اتباع الطريق الذي سلكته الأميرة ، فلم يكن مثار حديث الناس غيرها وغير طائرها الكبير ، ذلك بأن الأهلين قد غمرهم إعجاب شامل بها . كذلك ما زالت هواطيء الأوار والفردوج والجارون والجيروند تدوي بضجيج عظيم من الاستحسان .

لما بلغ أمازان سفح جبال البرنيس أجبره درودينو المملكة وحكامها أن يرقص بالدف، رضي أم أبى . وعند ما اجتاز جبال البرنيس لم يجد حيثاً غير المرح واللهو والسرور ، فلو سمع هنا أو هناك فلاح يغني فالنغم مقبض كئيب ، وكان المواطنون يتخايلون في مشيتهم ويتهادون بوقار كبير ويتحلون ببعض الخرز وفي مناطقهم خناجر . وكان الناس يلبسون السواد ويبدو عليهم الحزن . وإذا سأل خادم من خدام أمازان أحد العابرين سؤالاً لما أجيب إلا بالإشارات ، وإذا دخلوا فندقاً أخبرهم صاحبه بكل اختصار بأنه لا يوجد بالنزل شيء ، ولكن طلبتهم يمكن أن يعثروا عليها على بعد أميال قليلة .

وإذا سئل هؤلاء المتصدون بالصمت : هل شاهدوا أميرة بابل الفريدة الفاتنة وهي قد مرت بهم ، أجابوا باختصار أقل من المعتاد قائلين :

« نعم ، رأيناها ، إلا أنها ليست على هذا القدر من الجمال ، فليس من جميلات إلا من كن سمر ملوحات ، وهي تكشف من صدر كأنه رخام ناصع البياض ، وهذا أبعث الأشياء على الاستيحاش ، وقلما يعرف في إقليمنا » .

تقدم أمازان نحو المقاطعة التي يرويها نهر بتيس ، وهذه المملكة هي التي اكتشفها الصوريون منذ اثني عشر ألف سنة تقريباً، وذلك في الزمن الذي اكتشفوا فيه جزيرة أطلنطا الكبيرة التي غمرتها المياه بعد ذلك بقرون عديدة . زرع الصوريون بتيكا التي لم يفلحها أهلها مطلقاً ، وذلك للفكرة التي كانت تخامرهم بأنها ليست مكانهم وموطنهم ليتدخلوا في أمورها، وأنهم لو زرعوها لسقط عليهم جيرانهم الغاليون، فيحصدون ما زرعوا . وقد أحضر

السوريون معهم بعض الفلسطينيين أو اليهود الذين جابوا منذ ذلك الحين كل إقليم يمكن أن يكسب فيه المال ، فتملك الفلسطينيون بربح الفاحش الذي بلغ خمسين في المئة جل ثروات البلاد ، مما جعل سكان بتيكا يأخذونهم على أنهم من السحرة ، كما أن أولئك الذين كانوا يتهمون بالسحر حينذاك ، حُرقوا بغير شفقة ولا رحمة .

ألقت أميرة بابل رحالها في مدينة كانت تدعى في ذلك الحين اشبيليه ، وعزمت أن تبحر في نهر بتيس لتعود الى بابل عن طريق صور ، فترى مرة ثانية والدها الملك بيلوس وتنسى إن أمكن حبيبها المخادع الغدار أو تطلب منه على الأقل الزواج . أرسلت الى فلسطينيين كانا يديران كل أشغال البلاط هناك ليزودادها بسفن ثلاث ، فأنجز العنقاء معهم الاتفاقات الضرورية واتفق على الأجر بعد قليل من النقاش .

كانت صاحبة الفندق متعبدة كبيرة ، أمّا زوجها الذي لم يكن أقل منها تديناً فكان مفتشاً من أعضاء محاكم التفتيش . ولذلك فإنه لم يتأخر في أن يخبرهم أن بفندقه ساحرة وفلسطينين تعاهدوا مع الشيطان متنكراً في شكل طائر كبير له منقار ذهبي .

لما علم المفتشون بأن السيدة تملك كمية كبيرة من الجواهر أيقنوا بلا جدل أنها من الساحرات ، فانتظروا حتى يخيم الظلام ليسجنوا المثني فارس والخراتيت ، حيث أنهم باتوا في حظائر فسيحة . ذلك بأن المفتشين كانوا أدنياء جبناء .

وأسروا أميرة بابل وإرلا بعد أن أقاموا حدوداً ومتاريس عظيمة خلف الأبواب ، غير أنهم لم يتمكنوا من القبض على العنقاء الذي طار بسرعة فائقة وهو لا يشك في أنه سوف يقابل أمازان على الطريق بين بلاد الغال واشبيليه ، فالتقى به عند حدود بتيكا وأخبره بالكارثة التي ألمت بالأميرة .

حصر الغضب أمازان من الكلام ، وصلع نفسه بدرع من الفولاذ مرصع بالذهب ، ورمح طوله اثنى عشر قدماً ، وبمزراقين ، وسيف يدعى « الراعد » من شأنه أن يمزق كل مزق بضربة واحدة كل ما يصادفه من الأشجار أو الحجارة أو الدروديين . ثم غطى رأسه الجميل بخوذة من الذهب يظللها ريش النعام والبلشون . وهذه هي البزة الحربية القديمة لآل ماجوج أعطتها له أخته ألديا عند سياحته في بلاد أسقوثيا . وامتطى خدمه القليلون ظهور خراتيتهم

فاه أمازان بهذه العبارات الحزينة وهو يحتضن عنقاءه العزيز : « أواي مُدانًا . فلو أني لم أتناول غدائي مع تلك الفتاة العبقرية في الأوبرا ، في مدينة المتعطلين ، لما وقعت أميرة بابل في هذا المأزق المرعب . فهيا بنا إذن نطير الى المفتشين » . فهبط مدينة اشبيليه ، وكان يحرس أبواب [illegible] التي سجن فيها المثني فارس والمثني خرتيت خمسعشرة مئة من الحراس

الاسبان ، ولم يمدوهم بأي شيء من الطعام . وفي ذلك الوقت كانت جميع الاستعدادات قد أجريت لقتل الأميرة ووصيفتها إرلا والاميرفيين الفلسطينيين .

وكان كبير المفتشين قد جلس فعلاً على المنصة في محكمته المقدسة يحيط به ملازموه من صغار المفتشين . وقد تجمع عدد غفير من الاشبيليين مكتوفي الايدي صامتين ، عند ما قدمت الأميرة وإرلا والفلسطينيين وأيديهم موثوقة الى ظهورهم لابسين ثياب الاعدام .

دخل المنقاء السجن من كوة ، وبدأ الكنجيون يكسرون الأبواب من الداخل ، بينما هشمها أمازان الذي لا يقهر من الخارج ، وهجموا جميعاً الى الأمام مسلحين وهم ممتطين خراتيتهم وعلى رأسهم أمازان ، فلم يجدوا صعوبة ما في قهر الحراس أو المفتشين ، فلقد كان كل خرتيت يخرق بقرنه إثني عشر دفعة واحدة ، وأمازان المرعد يعرق كل من يصادفه تعريقاً .

وأخذ أمازان بطوق المفتش الاكبر من فوق منصته وقذف به على المحرقة التي كانت قد أعدت على بعد أربعين خطوة تقريباً ، كما ألقى عليها جميع الاعضاء الآخرين الواحد أثر الآخر . ثم ألقى بنفسه عند قدمي فورموزانتا : فقالت: « يا للعجب ، كم أنت فاتن محبوب ، وكم كنت أعبدك وأهيم بك وأعشقك ، لو لم تخني بصحبة مغنية الاوبرا ».

وبينما كان أمازان يسوي ما بينه وبين الأميرة من سوء التفاهم ، وبينما كان رفاقه الكنجيين يلقون بالمفتشين على المحرقة التي بلغ لهيبها السماء ، اذ به يبصر جيشاً يتوده ملك مسن من فوق رأسه تاج ، بينما شوهد في عربة يجرها ثمانية بغال طهمت بالحبال ، وتبعه مئة عربة أخرى ، كما كان في صحبتهم رجال ارتسم في وجوههم العبوس وقد امتطوا جياداً كريمة ، ومن وراء هؤلاء جميعاً يمشي جمع من الناس في هدوء ، وقد صولحت شعورهم بالدهون .

جمع أمازان رجاله الكنجيين من حوله في الحال وتقدم نحو الملك شاهراً حربته ، فلما أدرك الملك أمازان ، ترجل عن عربته الحربية وخلع تاجه ثم عانق ركاب أمازان قائلاً : « يا من أرسلته الآلهة ، أنت المنتقم للنوع البشري ، أنت مخلص بلادي . كان هؤلاء الذين طهرت منهم الارض أسيادي . فكنت مجبوراً على الخضوع الى نزوتهم الاجرامية ، ولربما انفض من حولي رجالي لو أني رغبت فقط أن أخفف من جرائمهم الشنيعة . إني لاتنفس منذ هذه اللحظة ، وأسود ، وإني لمدين لك بهذا » .

ثم قبل يد فورموزانتا باحترام كبير ، وتوسل إليها أن تركب عربته ومعها أمازان وإرلا والعنقاء .

وبعث فرق الخراتيت ملك بتيكا الى قصره ، أما الاميرفيان الفلسطينيان اللذان كانا

ما زالا مطروحين خوفاً وفزعاً ، فقد رفعا رأسيهما .

كان من مقتضيات الوقار الذي ينبغي أن يضفى على ملك يحكم شعباً ، من أخص صفاته الفقر والفاقة ، أن تسير بغاله بخطى وئيدة ، فاتسع بذلك مجال الوقت لأمازان وفورموزانتا أن يرويا له كل مخاطراتهما ، وكذلك تحدث الى العنقاء ذهنه وكثيراً ما كان يعانقه . وأحيط الملك علماً وأدرك بسهولة كيف يجب أن يعتبر أناس الغرب همجيين وحشيين ، وهم يأكلون الحيوانات ولا يفهمون لغتها ، وأن الكنجيين وحدهم هم الذين حفظوا وصانوا طبيعة الانسان الأول إلا أنه وافق على الأخص على أن أكثر البشريين همجية هم المفتشون الذين طهر أمازان الأرض من شرورهم ، وكان دائماً يشكر أمازان ويباركه . والآن نسيت فورموزانتا الفاتنة ما حدث في بلاد الشمال تمام النسيان ، ولم يعد يملأ روحها غير شجاعة وجرأة بطلها الذي صان حياتها وحفظها . وحينئذ تذوق أمازان طعم السعادة ونشوة الفرح وأسكره الحب العظيم لما وقف على حقيقة معانقة فورموزانتا البريئة لملك مصر ولما أخبر بموت العنقاء.

ثم تناولوا غذاءهم في القصر ، الا أن الطعام كان عديم المذاق رديئاً لأن طهاة بتيكا كانوا أردأ طهاة أوربا ، فنصح أمازان الملك بأن يرسل في طلب بعض الطهاة من بلاد الغال . وفي أثناء الطعام عزفت فرقة الموسيقى الملكية ذلك اللحن الشهير الذي سمي منذ ذلك الحين « مبادل اسبانيا » وبعد الغداء مضوا يتكلمون في المسائل العملية الهامة .

استفسر الملك من أمازان الجميل وفورموزانتا الفاتنة والعنقاء الرقيق عما ينتوون ؟ فأجاب أمازان بأنه سوف يعود الى بابل حيث أنه وارثها المنتظر ، ثم يطالب من عمه بيلوس يد ابنة عمه فورموزانتا الفريدة التي لا تبارى .

وقالت الأميرة : « إن ما عزمت عليه بكل تأكيد هو أن لا انفصل أبداً عن ابن عمي ، لكني أظنه يوافقني على أن أعود أولاً لأبي ، فانه لم يسمح لي الا بهجرة للبصرة وها أنذا قد طفت العالم هائمة » .

وقال العنقاء : « أما أنا فسأتبع الى أي مكان ، هذان الحبيبان الكريمان العاطفيان »

قال ملك بتيكا : « انكم جميعاً على حق ، لكن عودتكم الى بابل ليست من السهولة بحيث تتصورون ، إن أخبار تلك المملكة تصلني كل يوم ، بواسطة السفن الصورية ، والماليين الفلسطينيين الذين يصلون بجميع أمم الأرض ، بأن جميع الناس يحملون سلاحهم ميممين شطر الفرات والنيل . وقد أعلن ملك إسقوليا حق وراثة زوجته على رأس ثلاثمائة الف فارس كما خرب ملكا مصر والهند شواطئ دجلة والفرات ومع كل منهم ثلاثمائة الف رجل أخذاً بثأرهما من الملك بيلوس جزاء الاستهزاء بهما . وأما ملك الحبشة نغزا مصر

ونهوبها بجيش عدته ثلاثمئة الف رجل ، وذلك في غيبة ملكها . وأما ملك بابل فليس لديه سوى ما يقدر بستمئة الف رجل للدفاع عن نفسه .

ثم استطرد الملك قائلاً إنه يعترف بأنه لما سمع بهذه الجيوش التي تدفقت من الشرق وعلم بعظمتها وتفاخمها ثم قارنها بجنده العشرين الفاً أو الثلاثين الفاً الذين يدق عليه تغذيتهم ويصعب كساؤهم، تصور أن نصف كرة الأرض الشرقي إنما وجد قبل نصفها الغربي وانه يخيل اليه أن الغربيين انما وثبوا فجأة بالامس من جوف الماء والصحية .

قال أمازان : « ان المحدثين يامولاي غالباً ما يتفوقون على اولئك الذين بدأوا الشوط أولاً ، ويُظن عندنا أن الانسان إنما خلق بادىء ذي بدء في الهند ، ولكني لست على يقين من ذلك » .

ثمّ وجّه ملك بتيكا كلامه الى العنقاء سائلاً : « وماذا تظن في ذلك » .

قال العنقاء : « مولاي : إني لصغير السن جداً حتى الآن لأعرف شيئاً عن القدم ، فقد عشت فقط حوالي سبعة وعشرين ألف سنة ، غير أن والدي الذي لبث في الدنيا خمسة أضعاف هذا السن أخبرني بأنه علم من والده أن البلاد الشرقية كانت دائماً أكثر سكاناً وثروة من البلاد الأخرى ، كما علم أيضاً من أسلافه بأن تولد جميع الحيوانات إنما بدأ على ضفاف الكنج . أما أنا فما داخلني غرور جعلني أعتقد بهذه الفكرة ، ولا يمكن أن أصدق بأن ثعالب البلاد البيض وثيران جبال الألب وذئاب الشمال قد تنسلت من حيوانات بلادي ، كما لا أعتقد أن أشجار التنوب والبلوط في بلادك قد تولدت من شجر الكاكاو أو النخيل الذي بالهند .

قال الملك : « ولكن من أين انحدرنا إذن ؟ » :

قال العنقاء : « لا أعرف ، إنما كل ما أريده أن أعرف هو متى يصلح الأمر ما بين أميرة بابل الفاتنة وعزيزي أمازان » .

قال الملك : « كثيراً ما تساءلت ، أمن الممكن أن يقهر بجرائيته المتين جيوشاً كثيرة تبلغ عدة كل منها ثلاثمئة ألف رجل » ؟ .

قال أمازان : « ولمَ لا ؟ » وعندئذٍ أخذ ملك بتيكا يقرعهذا السؤال : — « لمَ لا » — إلاّ انه كان يتصور بأن الرخمة والنساء وحدها غير كافيين للاستقواء على جيوش لا حصر لها .

فقال : « أنصحك بأن تتوجه الى ملك الحبشة ، فان لي صلة بهذا الأمير الأسود من طريق عملائي الفلسطينيين وسأزوّدك بخطاب توصية اليه ، وحيث انه في عداء مع ملك مصر فانه

سيغتبط كثيراً بمحالفتك التي سوف تزيده قوة . وأستطيع ان أساعدك بألفي سياف شجعان، ويجب عليك أن تعتمد على نفسك فتستخدم كثيراً من الرجال الذين استوطنوا منفج البرنيس ويدعون الفسقون . فما عليك الا ّ أن ترسل أحد عاديك ممثلياً خرتيتاً وتزوّده بقليل من الجواهر حتى يترك كل غسقون قصره وأهلي سومسته التي ورثها عن أبيه ليكون في خدمتك ، فانهم أعداء أقوياء أمناء . وبينما أنت تنتظر وصولهم سنقيم لك المهرجانات ونمد السفن . فاني أعجز عن أن أؤدي اليك حق الشكران على الخدمات التي أديتها اليّ » .

ولقد أحس أمازان بنشوة السعادة لما إستعاد فورموزانتا وأنس بحديثها في هدوء وشعر بفتنة الحب الصافي ، تلك الاشياء التي تدل في قوتها ، قوة الشهوة المشبوبة .

وسرعان ما وصلت جيوش الغسقون المظفرة المرحة وهم يرقصون على أنغام الدفوف . وكانت جيوش بتيكا الباسلة قد احتشدت ، فعانق الملك العجوز الملوح اللون الحبيبين وزود السفن بكميات كبيرة من الاسلحة والفراش والصناديق الضخمة ، والاغطية ، والملابس السود وبالبصل والدجاج ، والاغنام والدقيق وخاصة الثوم . وتمنى لهم سفراً سعيداً وحباً ثابتاً وانتصارات متعددة .

لم تكن حينذاك قرطاجة المظفرة ذات قوة بحرية ، ولم يكن يقطنها غير بعض النوميديين الذين اتخذوا من تجفيف الاسماك على أشعة الشمس حرفة لهم . وكانوا يجوبون الشاطىء من بيزاقينة وصورتة والدطشان الخصيبة التي قامت عندها مدينة قورينة ومدينة خرصونيز العظيمة .

وصلوا أخيراً تجاه المصب الاول لنهر النيل المقدس ، وكانت تستقبل فعلاً جميع سفن الامم التجارية عند نهاية هذه الارض الخصيبة في ميناء كانوبوس ، ولم يعلم أحد إن كان الإله سهيل قد أسمى هذه الميناء أم كان السكان هم الذين سموا بهذا الالـه ، أم كان النجم سهيل قد أضفى اسمه على المدينة ، أم كانت المدينة هي التي خلعت هذا الاسم على النجم ؟ وكل ما كان معروفاً عن ذلك هو أن المدينة والنجم كلاهما قديم جداً وهذا كل ما يمكن أن يعرف عن أصل الاشياء مهما كانت طبيعتها .

رأى ملك الحبشة في هذه البقعة من الارض — بعد أن أخضع مصر — أمازان القاهر وفورموزانتا المعبودة يتزلان الى البر ، فقام في نفسه اعتقاد بأن أحدهما هو إلـه الحرب والآخر إلـه الجمال . قدم اليه أمازان كتاب التوصية الذي كان يحمله من ملك اسبانيا . وفي الحال قام ملك الحبشة بتكريمهما وذلك بأن أقام لهما مهرجانات فخمة كان لا بد منها وفقاً لعادات عصور البطولة .

ثم تشاوروا في الطريقة التي يجابهان بها الحملة الحربية لاخضاع جيوش ملك مصر الثلاثمئة الف ومثلهم لكل من أمبراطور الهند وخان الاسقوثيين الأكبر الذين كانوا يحاصرون مدينة بابل العظيمة المحصورة المليئة بالمهوات .

حينئذٍ قال المثني إسباني الذين أحضرهم معه أمازان بألا شأن لهم بملك الحبشة وفكه لحصار بابل ، بل يكفي عندهم أن أمرهم ملكهم بالتوجه لانقاذها وأنهم قادرون كل القدرة على القيام بهذه الحملة .

وقال الصقوريون بأنهم كثيراً ما قاموا بمثل هذه المهمات من قبل وأنهم بمفردهم لسوف يقهرون المصريين والهنديين والاسقوثيين وانهم لن يتحركوا إذا لم يوضع الاسبانيون في حرس المؤخرة .

لم يسع المثني كنجي إلا أن يتضاحكوا من ادعاءات حلفائهم ، وأصروا على أنهم بمئة خرتيت يمكنهم أن يقتلوا ويبيدوا كل ملوك الارض . وعلى أثر ذلك هدأتهم فورموزانتا الجميلة بحكمتها وعقلها الساحرة الفاتنة ، وقدم أمازان للملك الأسود جنده الكثير وخرتيته ورجاله الاسبان والصقوريين وطائره الجميل .

كان كل شيء على تمام الأهبة للسير من طريق عقيس ، فهليوبوليس ... وأرتيتس وصور وأدمين ، لمواجهة الملوك الثلاثة وتتبع هذه الحرب ... التي لا ... والتي ان قرنت بها أي حرب قامت بها البشرية ، لما كانت بالقياس عليها إلا فقاعات .

رددت الشهرة بألسنتها المثوية تلك الانتصارات التي حازها أمازان على الملوك الثلاثة برجاله الاسبان والصقوريين والخراتيت ، ورد فورموزانتا الفاتنة الى أبيها ، وأنقذ ... جاريتها من قبضة ملك مصر ، وأعلن خان اسقوثيا الأعظم نفسه أميراً تابعاً له وصدق زواجه من الأميرة ألديا . وأما أمازان القاهر الكريم فأعلن بأنه ولي عهد مملكة بابل ... المدينة يحتفل به النصر ومعه العنقاء بحضور مئة ملك من أتباعه . وكان الاحتفال بزواجه أضخم وأفخم من الاحتفال الذي أقامه للملك بيلوس من قبل ، وكان مما قدم على المائدة العجل آبيس مشوياً ، كما كان ملك مصر وملك الهند ساقيا العروسين . وكفى أن هذا العرس قد أشاد به خمسمئة شاعر من شعراء بابل العظام .